بين نارعين

رواية

عاطف رضوان المومني

اسم الكتاب: بين شارعين

اسم الكاتب: عاطف رضوان المومني

رقم الإيداع: 8828 / 2019

الترقيم الدولي: 978-977-835-104-0

الطبعة الأولى: 2019

تدقيق لغوي: عمرو السواح

إخراج داخلي: هيام فهيم

تصميم الغلاف: أحمد الخولي

صادر عن: مؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

www.za7ma-kotab.com

دار زحمة كتاب للنشر

za7ma_kotab_publishing

za7ma-kotab@hotmail.com

01205100596

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة زَحمَة كُـتَّاب للثقافة والنشر

الإهداء ..

إلى أمي وأبي وأختي وأخي

إلى زوجتي وأبنائي وبناتي

إلى أقاربي وأصدقائي

إلى كل محب عاشق

إلى كل مواطن ثائر مخلص شريف لا يقبل الذل.

الكاتب: عاطف رضوان المومني

الفصل الأول

البداية ..

يوم جميل من أيام حزيران في أواخر القرن العشرين ما كاد الصبح يتنفس حتى بدأت الحياة تدب في أركان المدينة، وغدت أسراب الطيور تروح وتجيء باحثة عن أرزاقها، وفي بيت جميل متواضع من بيوت ضاحية الرشيد في عمان بدأت الحياة تدب في أركان المنزل، الكل في حالة هيجان واستنفار لاستقبال الحدث الجميل. جلس أفراد العائلة على طاولة الإفطار التي كانت تزخر بالحمص والفول والفلافل الساخنة وصحن الزيت والزعتر والخبز المحمر، يترأسها إبريق الشاي، وكان الحديث بينهم مشتَّتًا.

ما هي إلا ساعة من الوقت بعد أن فرغوا من تناول الطعام حتى خرج كل إلى غايته وبقيت أنا وصغيرتي ليمار.

-هيا يا ليمار أسرعي، لقد تأخرنا، ويجب أن نذهب إلى السوق كي نشتري لك فستانًا يليق بك؛ فغدًا سيكون الزفاف.

-حاضر أمي..أنا جاهزة.

-حسنًا، اجلسي في المقعد الخلفي واربطي الحزام.

-حاضر أمي.

أنهينا مشترياتنا من السوق وعدنا إلى البيت. تناولت ليمار عشاءها ورافقتها إلى سريرها كالعادة، وما إن دخلت في سريرها حتى سألتني:

-ماما....صديقتي ريما تقول: حرام أن يتزوج الأخ من أخته!

ضحكت وقلت لها: نعم صحيح، لا يجوز، فقط يجوز في حالة واحدة!

-ولكن كيف؟ وما هي هذه الحالة؟

-حسنًا سأخبرك، فاستمعي جيدًا.

في يوم من أيام فصل الشتاء الباردة، نهضت باكرًا كعادتي لأعد طعام الإفطار وأجهز الأولاد؛ خالد وفرح، لتوصيلهم إلى مدارسهم، أتفقد حقائبهم وما تحتوي من دفاتر وأقلام و(السندويشة)، تتواصل نداءاتي لهم بالاستعداد، وبعد أن أفرغ من كل شيء يخرجان مهرولين أمامي يتسابقان أيهما سيجلس في المقعد الأمامي، فأضطر لممارسة دور الشرطي أحيانًا بعد أن تعجز كل محاولات الاسترضاء.

هذا اليوم كان مختلفاً عن بقية أيام السنة، قبل أن أخرج من المنزل سمعت رنين الهاتف، قلت لنفسي إنه أمر غريب حقًّا؛ إذ ليس من عادة هاتفي أن يرن في مثل هذا الوقت المبكر من النهار!

أول ما خطر ببالي أن تكون إحدى صديقاتي أو أحد أقربائي، وعندما سمعت صوت رجل قلت وعلى عجالة من أمري:آسفة يا أخي أنت مخطئ؛ النمرة غلط، لكنه استوقفني قبل أن أهم بإغلاق السماعة قائلًا بصوت خافت متقطع وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف، أو كأنما داهمه خطر ما أو غريق يطلب النجدة:

-لا يا سيدتي، لست مخطئاً بالرقم، ألست أنت السيدة هناء؟

قلت وقد ملأ الخوف كياني:نعم، من حضرتك؟

قال لا يهم من أكون، المهم أنني أردت أن أُلقي عليك تحية الصباح.

موجة من الغضب اجتاحت وجداني، لم أرد عليه بل أغلقت السماعة واتجهت نحو سيارتي قاصدة توصيل الأطفال إلى مدارسهم.

من عادتي -عندما أصل- أن أتوقف على يمين الشارع وأفتح لهم الأبواب وأمسك بأيديهم الصغيرة حتى أطمئن إلى دخولهم غرفة الصف، ومثلي كان يفعل الكثيرون من الآباء والأمهات، نلتقي كل يوم في الذهاب والإياب نتبادل تلك الابتسامات الصفراء، وتحيات روتينية بلا حرارة، ثم يذهب كل واحد منّا لشأنه.

كثيرًا ما ترد المكالمات الهاتفية بالخطأ، ولا يخلو الأمر من المعاكسات أحيانًا، لم أكن لأهتم ولم أعرها انتباهًا، لكن مكالمة هذا اليوم لم تمر مرّ الكرام، فقد ظلت تلازمني كلمات ذلك الرجل، كان يكلمني وكأنه يعرفني منذ زمن طويل، لا بل ناداني باسمي.

عندما عدتُ إلى المنزل كان شيءٌ بداخلي يتوجه نحو الهاتف وكأنني كنت أتوقع منه معاودة الاتصال، ليس من عادتي التركيز على مثل هذه الأمور؛ فقد صادفتني الكثير من المعاكسات والمضايقات، لا ذنب لي إلا أنني بالغة الجمال وفاتنة ورشيقة القوام، أينما ذهبت كنت لافتةً للأنظار إلى حد أنني كنت أشعر بالحرج في كثير من المواقف، أما مضايقات الهاتف فحدث ولا حرج لكنها كانت تمر بحياتي مرّ السحاب، سريعة جدًّا ودون أي أثر يذكر. هذه المرةَ مختلفة، شعرت برغبة في داخلي للحديث مع ذلك الرجل، ولم يطل انتظاري فها هو يطلبني مرة ثانية لأجد نفسي أتجه نحو الهاتف ويدي ترتعش من الرهبة وكأن في سماعة الهاتف مغناطيسًا يشدني إلى ذلك المتواجد خلف الأسلاك المتشابكة، فتصنعت القوة وقلت له بلهجة حازمة:

-من أنت؟

صمت برهة، ثم قال:

-علاء....أنا علاء.

- من علاء؟ أنا لا أعرفك.

قال بلهجة واثقة:لكنني أعرفك، ألست السيدة هناء؟

ثم واصل حديثه وراح يذكرلي تفاصيل حياتي، وأين أسكن، وأين أعمل، والمدرسة والأطفال، فقلت له: مهلًا مهلًا، هل تراقبني يا هذا؟ ثم ما شأنك أنت؟ لأكن من أكون!!

-لا لا معاذ الله يا سيدتي، إنما هي الصدفة قادتني إليك.

-أية صدفة تلك التي تتحدث عنها؟ ثم إنك لم تخبرني من تكون وبأي حق تقتحم علي هاتفي وتتجرأ على مكالمتي؟

توقف عن الكلام قليلًا ثم قال:

-دعيني يا سيدتي أبدي إعجابي الشديد ليس بجمالك فحسب كما يفعل الكثيرون، لكن ما شدني إليك هو قوة شخصيتك!

لم أدعه يكمل حديثه، قاطعته؛ وما أدراك أنت بقوة شخصيتي؟ أرجوك يا أخي دعني وشأني فلا حاجة لي بك، ثم إياك أن تتصل بي مرة أخرى فيحدث ما لا تحمد عقباه.

-بل أنا من يرجوك أن تسمعيني، ولتكن هذه آخر مرة كما تشائين، أتستكثرين عليّ بعد كل هذا الانتظار أن أبدي إعجابي بك عبر هذه الأسلاك الصماء؟ أنا لا أريد بك ضررًا لا سمح الله، وأعتذر عن اقتحامي لعالمك الخاص، ولكن صدقيني أنني وجدتها الوسيلة الأفضل لإيصال مشاعري وأحاسيسي تجاهك.

-أية أحاسيس ومشاعرتلك التي تتحدث عنها يا رجل؟ إنك تهذي، بل أنت شخص مجنون وبلا عمل تريد أن تتسلى، اغرب عن وجهي.

-سيدة هناء، انتظري لحظة، أرجوك لا تغلقي الخط.

-ماذا تريد أيها الأحمق؟

-لا شيء، سامحي جنوني يا سيدتي، لكنني حتمًا لا أريد التسلية، ولست مجنونًا ولا أحمق.

-إذن قل لي ماذا تريد مني؟ ألا تعرف أنني متزوجة؟

-أعرف، وأعرف زوجك الشيخ صالح، وأبناءَك خالد وفرح و....

قاطعته مندهشة:

-يبدو أنك تعرفني جيداً، فهل تكون صادقاً معي وتخبرني من أنت؟ وكيف وأين عرفتني؟ ثم ماذا تريد مني؟

-أفعل، لكن لي شرط واحد إذا وافقت عليه سأجيبك عن كل أسئلتك، هل أنت موافقة؟

-حسنًا، ولكن دعني أسمع ما هو هذا الشرط أولاً.

-أن تسمحي لي بإلقاء التحية عليك مرة ثانية. ماذا قلت؟

بصراحة فاجأني هذا الشرط، لكن في قرارة نفسي لم أجده شرطاً قاسياً إذا ما قورن بحجم الاعتراف وذهاب الحيرة من مخيلتي...صمتُّ برهة ثم قلت:

- حسنًا...لك ذلك، ولمرة واحدة فقط، ولكن أيضًا على شرط أن تكون صادقاً فيما تقول.

-حسنًا؛ كنت واقفًا أمام الكاشير في السوبرماركت، تفاجأت بدخولك ترتدين قميصًا أصفر اللون وبنطال جينز وقد أسدلت شعرك الناعم على كتفيك بوجهك المبتسم، بهرني حسنك وجمالك الفتان، لم أستطع مقاومة نفسي من النظر إليك والتأمل بحسن صنيع الخالق، فتبعتك حيث قادتني قدماي عنوة ومشيت خلفك حتى وصلت إلى بيتك فعرفت زوجة من أنت؛ إذ كان اسمه مكتوبًا على باب المنزل، فحصلت على رقم هاتفك من الدليل، منذ ذلك الحين لا يمر يوم دون أن آتي لزيارة حيِّكم، وكنت أكتفي بمشاهدتك أثناء توصيل الأولاد إلى المدرسة.

قلت مقاطعة إياه:

هذا يعني أنني أعرفك، هل لك أولاد في المدرسة؟

صَمَتَ هُنيهةً ثم قال متلعثمًا: لا، أولادي في مدرسة أخرى.

-إذن أنت متزوج.

-نعم.

-بالله عليك، ألا تخجل من نفسك ؟ ألا تغار على زوجتك أو أخواتك؟ ثم إنك وعدتني أن تخبرني من أنت وما زلت أنتظر الإجابة فلماذا تماطل؟

-أرجوك، لا تجرحيني بالقول فهذا أمر أصبح خارج إرادتي، كم حاولت أن أقاوم نفسي التي ضعفت أمامك، وكم قلت لنفسي: ألا تخجلي يا نفس؟ ما لي وهناء؟ هي ليست لي بأي حال من الأحوال! غلبني الشوق وهزني الحنين للحديث معك ليس إلا.

أكثر من نصف ساعة مرت على حديثي مع هذا الغامض لم أشعر بها..مرت وكأنها دقيقة واحدة، كلما هممت بإغلاق السماعة طالبتني نفسي بالمزيد من الحديث، وجالت بي الأفكاروالظنون، قلت لنفسي "انتبهي يا هناء؛ أنت أمام رجل مختلٍ عقليًّا أو متلاعب ذكي، صياد نساء يريد التسلية ولا تهمه

العواقب، فكري بطريقة عقلانية للتخلص منه بأقل الخسائر وبالسياسة واللين".

-اسمع يا أستاذ علاء، أنا لست امرأة لعوبًا، وأحب زوجي وأسرتي، وأنت أسأت الاختيار.

-أستغفر الله يا سيدتي، أنت أجل وأرفع من أن تكوني كذلك؛ لأنني أعرفك جيداً، ولا داعي لتخبريني من تكونين، ثم إنني لا أبحث عن لعوب، ولو أردت ذلك لوجدت الكثيرات منهن يتمنين ابتسامة أو كلمة واحدةً مني.

-إذن ماذا تريد مني...أرجوك؟

-بصراحة؟ لا شيء.. لا أريد منك ولك إلا السلامة والسعادة والهناء، وأن تسمحي لي بإلقاء التحية عليك بين الحين والآخر، وأن نكون أصدقاء. هذا كل شيء.

-لماذا؟ وما الذي ستجنيه من تحيتي وصداقتي؟

-آه لو تعرفين كم أجد في تحيتك مؤنساً، وبعقلك مرشداً، وبرقتك وسحر أنوثتك بلسماً.....

قاطعته:

-أرجوك ابتعد عن طريقي، أنا لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك. ثم أغلقتُ السماعة، ولكن يدي ما زالت ممسكة بها، توقعت أن يعاود الاتصال، لكنه لم يفعل!

أعدت شريط الحوار مرات ومرات بمخيلتي لعلني أرسم صورة لذلك المعتوه، وكلما فكرت أكثر زادت حيرتي، واختل توازني كيفما اتجهت، وكيفما حاولت تجاهله أجد نفسي غارقة بالتفكير به، ما هذا الداء الذي أصابك يا هناء؟ هي مكالمة هاتفية من مختل عقليٍّ يريد التسلية بك ليس إلا، كيف قَلَبَتْ كيانك وشلّت تفكيرك إلى هذا الحد؟ يا لسخرية القدر!! وكأنه أدرك ما بقلبي من حزن وفراغ فجاء ليملأ قربي الفارغة بالشوق والحب بعد كل هذا الظمأ في صحراء عمري المضمحلة؟ لا... لا...ما هكذا تورد الإبل يا هناء، دعيه وشأنه وليذهب إلى الجحيم هو وهاتفه.

مضى يومان حبست نفسي فيهما داخل المنزل انتظارًا لسماع رنين الهاتف، أصبح الهاتف عندي ذا قيمة عالية منذ تلك اللحظة. إنه شعور متلاطم بين الرغبة والرهبة عندما يتحول الهاتف إلى كابوس تتوقع في كل متصل أن يكون ضالتك لتفاجأ بأحدهم يبادلك الحديث، ويشغل الخط تحادثه بنوع من الملل وبرغبة منك في إنهاء المكالمة بأسرع ما يمكن، لكي لا يبقى الخط مشغولًا

في انتظار من هو أهم. لكنه لم يتصل...نعم أحسست بالر احة شيئًا ما، لكنني لا أخفي أن بداخلي شيطانًا يطالبه بالاتصال ثانية.

في مساء اليوم الثالث كنت قد فقدت الأمل باتصاله، فسمعت رنين الهاتف فتوجهت إليه وكل ظنِّي أنه أبي، كنت أنتظر منه مكالمة؛ فهو في العادة يكلمني في مثل هذا الوقت من الليل، بينما المدعوعلاء يكلمني صباحًا قبل خروجي إلى العمل؛ لذلك لم أكن أتوقع أن يكون هو المتصل.

رددت قبل أن أسمع صوته:

-أهلًا بابا

رد ضاحكًا:

-بابا؟؟

عندها أدركت الأمر وبادلته الضحك، مما أضفى على الحديث شيئًا من الحميمية، شعرت بسعادته عندما قال:

-هذه أول مرة أسمع فيها ضحكاتك، إنها جميلة جدًّا.

جاملته:

-أشكرك، يبدو أنك زير نساء ومتمرس في أحاديث الغزل.

أنستني تلك المقدمة ما كنت أفكر به من حديث، وجرني هو حيث يشاء، وكنت أمشي وراءه منقادة بمحض إرادتي كالشاة تمشي خلف راعيها، عندما قال: أرجو ألا أكون قد أزعجتك.

رددت عليه وبسرعة وبدون تفكير؛ لا أبدًا أبدًا، وقلت مجاملة: كيف حالك؟

قال: أنا لا أصدق أذنيَّ، أنت تسألينني كيف حالي؟ يا لسعادتي...أنا أسعد إنسان في الدنيا!

لم أدع فرحته تدوم طويلًا، قلت وبلهجة جادة:

-هكذا إذن لك ما أردت، أنت أردت أن تطرح التحية وحسب، ونحن صدقناك الوعد، وقبلناها منك، ولتكن هذه هي آخر مرة، أرجوك لا تعاود الاتصال بي مرة ثانية.

أغلقت السماعة، وأغلقت معها نافذة كادت أن تنفتح في قلبي لذلك الرجل الغامض. شعرت بالأسى على ذلك المسكين، تخيلته صامتًا واجفًا يرفع سماعة الهاتف فوق أذنه وهو ينادي: ألو..ألو.ألوووووووووو! ولكن ما من مجيب.

لم يمر يومي بسلام؛ فبعد دقائق معدودة رن الهاتف مرة ثانية، قررت عدم رفع السماعة، لكن ذلك الهاتف اللعين لم يتوقف عن الرنين لدرجة أنه أصابني بالجنون، رفعت السماعة والغضب يجتاحني، ودون أن أعرف من على طرفها الآخر قلت بصوت عالٍ، ألا تفهم؟ ألا تخجل؟ قلت لك لا تكلمني ثانية...قاطعني صوت أبي ضاحكًا..

"آه أبي - نسيت أن هذا موعد اتصاله بي- أصبحت أغرق بعرقي من الخجل وتلبكت وتبعثرت كلمات الاعتذار على لساني " قلت:

-أرجوك أبي سامحني.

-من هذا يا ابنتي الذي يزعجك؟

-لا تقلق أبي، إنه شخص متطفل، وقد تخلصت منه بسهولة، ظننته عاود الاتصال.

ثم تبادلنا الضحك وبدأ أبي يسألني عن أحوالي كالعادة.

مر أسبوع كامل دون أن يتصل، أصبحت منذ ذلك الحين أسيرة بل عبدة لذلك الهاتف كل يوم أنتظره لكنه لم يفعل، أصبح الهاتف في منزلي أداة صماء لا روح فيها، لم تشف غليلي اتصالات الأهل والأصدقاء. وهكذا مر الأسبوع الثاني ثقيلاً ولم يتصل، فأدركت حينها أن وقع كلماتي كان له تأثيرٌ

كبيرٌ عليه، أحسست بأنني سببت له جرحًا وألمًا جعله يفقد كل تلك الرغبة الجامحة في الحديث معي، وبدأت أسأل نفسي: "هل يعقل أن يكون قد كرهني لهذا الحد؟ وهل من الممكن أن يكون مختلًّا عقليًّا فيدبر لي المكائد؟..لا لا ربما أصابه اليأس والملل" وبدأت تساورني وساوس كثيرة؛ من هو؟ وكيف هو؟ وماذا هو؟ ومن أين هو؟

يا إلهي عفوك، ماذا فعل بي ذلك الرجل؟ لم تكن إلا مكالمة هاتفية وكثيرًا ما تعرضت لهذا الموقف من قبل، لم يأخذ من وقتي أو تفكيري أكثر من دقائق. ما بك يا هناء تتسللين إلى الهاتف والناس نيام تجلسين بقربه تضعين يدك على السماعة وترفعينها فوق أذنيك ليأتيك ذلك الرنين المتواصل....وكأنك على موعد مع الحب ؟؟ لا بد من وضع حد لهذه المهزلة وإخراجه من حياتك إلى الأبد.

في يوم العيد..

انتهى شهر رمضان بحلوه ومره ولم يتصل بي ذلك الغريب، وهاهو العيد يأتي حاملًا أفراحه وبهجة الأطفال، وفرحتهم بلباسهم الجديد، وغبطتهم بتناول الحلوى كيفما يشاؤون، إنه العيد ولا أحد يستطيع أن يسلبهم هذا الحق في تناول الشوكولا والمعمول.العيد فرحة للأطفال والنساء، وهمٌّ وغمٌّ للرجال.

تنتظر المرأة في العيد زيارة أهلها وأحبتها وتبادلهم التهاني والزيارات، ولا تخلو من الرحلات الجميلة التي تنسي الناس هموم العمل ومشاكل الحياة.عيدي أنا كان مختلفًا جدًّا، في الصباح الباكر اصطحب زوجي الأولاد وذهب إلى الصلاة ومن هناك إلى بيت أهله وبقيت جالسة أتابع بعض البرامج التلفزيونية. وعلى طاولة الوسط أو ما نسميه الطربيزا جلست دلة القهوة محاطة بأبنائها الفناجين تنتظر من يسكب فيها قطرات مرّة.

زيارات بعض الأقارب والجيران والأصدقاء خففت من شعوري بالوحدة، لكن شيئًا بداخلي كان يعتصرني ألمًا، أريد من أحد أن يضمني إلى صدره ضمة حنان، أريد همسة حب في أذني تشعرني بأنوثتي، أريد لمسة ليدي وقبلة تروي عطش شفتيَّ الذابلتين...الجدران من حولي تسمع أنيني والوسادة الخالية

ملّت من شكواي، لم أجد من يحتملني غير هذا الكتاب الذي أتجول بين صفحاته تارة وبين الشرود تارة أخرى.

في لحظة ضعف واشتياق وجدت نفسي أرفع تلك السماعة وأطلب ذلك الرقم الذي لم أكن أتوقع في يوم من الأيام أن أطلبه، رد علي بهدوء تام:

-ألو...ألو....ألو

كنت أتلذذ بسماع صوته وهو يقولها، ولكنني لم أنبس ببنت شفة، وبقيت صامتة ثم إنه هو أدرك ذلك، فراق الأمر له ولم يغلق الهاتف. وبين الحين والآخر كان يخاطبني هامسًا: " كل عام وأنتم بخير، إنني أدرك مدى صعوبة الحديث لكنني أكتفي بسماع صدى أنفاسكم، كل ما أتمناه أن تكونوا بخير".

بقيت معه على الهاتف مدة طويلة عرفت من خلالها أنه شاعر، عندما راح يقرأ لي بعضًا من قصائده، ما زلت أذكر تلك الأبيات.

أتاني هواكِ بوقت المشيب كداء سرى فيّ واستحكما
فلا من دواءٍ ولا من طبيبٍ يداوي جروحاً نزفن دما
لغيركِ ما كنتُ سهلاً مجيباً ولكن بإثنين إحداهما :
دماغٌ غدا في مهبِّ الرياحِ فهيهاتَ هيهاتَ أن يَعلما
وقلبٌ محبٌ حزينٌ كئيبٌ يداري ويكتمُ ثانيهما

كانت رسالة لي بأنه عاتب عليّ وأنني جرحت كرامته، لم أتمالك نفسي من البكاء، لم أبك عطفًا عليه، ولا تأثرًا بكلماته، لكنني كنت أبكي على حظي مع ذلك الصنم الذي يجمعني به فراش واحد تحت سقفٍ واحدٍ.

ولم يخف عليه ذلك؛ فقد أدرك وسمع صوت نشيجي فسألني:

-هل تبكين يا هناء؟..أكاد أسمع صوت بكائك الخافت، أنا من أرادك سعيدة، لم أجلب لك غير البكاء، إنه العيد يا سيدتي، ابتسمي للحياة، ابتسمي للفرح، ابتسمي للحب.

كنت أكتفي بالهمهمة لأشعره أنني أسمعه، وأخيراً أغلقت السماعة دون أن أتفوه بكلمة واحدة، لكنني أحسست بسعادة غامرة، وكأن حملاً ثقيلاً كان يجثم فوق ظهري وتخلصت منه، شعرت بالفرح، شعرت ببهجة العيد، شعرت بأول خفقة حنان في قلب اعتراه صدأ الإهمال والنسيان منذ زمن.

كان يكلمني وكأنه يراني جالسةً أمامه، أحسست بدفء حديثه ورقة إحساسه، وكَسَرَتْ أحاديثه حاجز الخوف عندي، وصرت لا أتردد بين الفينة والأخرى من رفع السماعة لسماع صوته، أحيانًا أُسمعه مقطعًا لأم كلثوم، كان لا يتكلم كثيرًا، يبقى منصتًا على الهاتف، وبين الحين والآخر تخرج منه كلمة ألو.... ليس أكثر، ألو كلمة أصلها إنجليزي، وتعني مرحبًا،

كنت أرد عليه بقرارة نفسي (أهلًا) يقطع صمتنا نداء أحد الأطفال فينكشف الأمر- الذي هو بالأصل مكشوف لكلينا، وذات مرة رفع السماعة ولم ينبس ببنت شفة، طال صمته دون أن يقول ألو، فانتابني القلق وبشكل لا إرادي وجدت نفسي أنا أقولها له، ضحك ضحكة هادئة وأجاب:

-أهلًا بالهناء. كيف حالك؟

لم أسمع ما قال، لكنني تداركت الأمر ووجدت نفسي محشورة في دائرة مغلقة، وبدأ العرق يتصبب عن جبيني، وصرت أبحث عن مخرج أخرج منه بأقل الخسائر، سألته: هل كتبت شيئًا جديدًا من الشعر؟ قال: نعم كتبت. قلت: هل تسمعني بعضًا منه؟ قال على الرحب والسعة، اسمعي إذن:

يا من بحسنك زدتنا إحســـانا وجعُ القلوبِ بهجركم أضنانا
بعد الذي قد كان بين قلوبـــنا أضحى التواصل بيننا هجرانا
حملتني بالحب ذنبًا فاصفــحي فالحب في شرع الهوى غفرانا
وتركت في كل الأماكن بصمـــة وتركت في كل الدروب جمـانا
وزرعت في كل الحدائق زهـــرة بأريجها و بعطـــرها ألـوانا
وتراقصت أطيار روضك فرحـة نشوانـة وتفجـرت ألحـــانا
ودخلتُ في محراب حبكَ ناسـكًا متعبدًا، أو عاشقًا ولهـــانا
وأنا شريد الحي أبحث عن هَـنا هل للهناء بحيّكم عنـــوانا؟

ضاقت بي الدنيا فما من سامع أشكو إليه الهم والأحـــزانا
ماذا أقول ومن عيونك أرتــوي نبض الحياة وعشقها الفتانا
ماذا أقول وفي عيونك قــد أرى حب الحياة وحبكم جيــرانا

سمعتها بصوته عذبة كالشهد، وما زلت أطلب منه إعادتها حتى سجلتها على شريط احتفظت به، وكلما خطر طيفه ببالي سمعتها.

مر يوم ويوم ويوم ولم يكلمني فأخذتني العزة وقلت لن أكلمه، هكذا هم الرجال إذا أحسوا أن امرأة تجري خلفهم يبتعدون عنها، يتلذذون بمن تجري خلفهم ويتكبرون، إنها غطرسة الرجال، وبينما أنا في تلك الوساوس إذ بصوت الهاتف يناديني: أسرعي يا هناء..أسرعي...أسرعي، إنه هو. بسرعة البرق اتجهت نحو الهاتف" كم أحبك أيها الهاتف اللعين عندما ترن أجراسك وتهتز أركانك الصماء لتملأ البيت بألحانك الشجية...، وكم أكرهك عندما تصمت فتغدو جثة هامدة بلا روح ".. ألو....ألو..لا أحد يرد، لكنني أكاد أشم رائحة عطره وأسمع أنفاسه، قلت له: المعاملة بالمثل إذن؟ إن لم ترد فسوف أغلق السماعة، وسأعد حتى الرقم ثلاثة، وبدأت بالعد، وكم سررت وسعدت عندما سمعت ضحكته، ولم أمهله كثيرًا بعد أن طرح التحية، بادرته بالسؤال:

-من أنت بحق السماء؟

رد بهدوء: قلت لك أنا علاء. قلت أين تعمل؟ قال أعمل محاسباً في مؤسسة الضمان الاجتماعي.

ثم دار حديث دافئ بيننا أعطاني معلومات عن نفسه لأكتشف لاحقًا أنها كاذبة.عرفت ذلك من اتصالي بمؤسسة الضمان الاجتماعي وطلبت من البدالة إيصالي بالسيد علاء، وكان بمحض الصدفة هناك شخص آخر بهذا الاسم، وعندما رد أدركت أنه ليس هو، استشطت غضبًا وثارت بي كل كوامن الشر، وقررت أن أنتقم منه، ولكن شيئًا في صدري جعلني أتساءل لماذا يكذب يا ترى؟ وما الذي يمنعه من البوح عن نفسه؟ أيعقل أن يكون من سكان الحي؟ أو ربما هو أب لأحد الأطفال في المدرسة ويخشى المواجهة؟ لكن مما لا شك فيه أنه خائف من شيء ما، أثار خوفه دوافع حب الاستطلاع لدي وقررت السير معه لآخر الطريق حتى أسبر غور طلاسمه.

بدأت أراقب كل شخص يمر من أمام المنزل، لعل أحدهم يطيل بي النظر أو يرشقني بابتسامة، ثم بدأت أطيل النظر بآباء الطلبة أثناء توصيل أبنائهم.

ذات يوم لفت انتباهي رجل يمر من أمام منزلنا كان يرتدي كوفية حمراء ويبطئ المسير عندما يقترب، ثم يلتفت، بل ويطيل النظر إلى المنزل، لم أعرف من هو لكنني متأكدة أنني رأيته أكثر من مرة، عدت بذاكرتي إلى الوراء، مر بخيالي رجل ذو كوفية حمراء أمطرني ذات مساء بكرات من الثلج، أتراه يكون هو؟ لا أدري.....ربما.

في عجالة من أمري رفعت سماعة الهاتف وقبل أن أطرح عليه التحية قلت له بلهجة غاضبة:

-عرفتك أيها الكاذب.

رد بخوف شديد:

-قولي صباح الخير أولاً.

-لا خير ولا شر، لماذا كذبت علي وادّعيت أنك تعمل في الضمان الاجتماعي وأنت كاذب، وقلت إن اسمك علاء؟ وهذا أيضًا كذب، قل لي ماذا تريد مني بالله عليك؟

رد بهدوء قاتل وبكل برودة أعصاب: لماذا كل هذه الثورة والغضب يا سيدتي؟

قلت: لأنك تكذب. قال: اعذريني؛ لدي أسبابي.

بشيء من الانفعال رفعت وتيرة صوتي فقلت: وما دخلي أنا بأسبابك؟ وما حاجتي لإنسان كاذب؟ ثم ما هي تلك الأسباب التي تجعلك تكذب؟ قال:تمهلي وهدئي من روعك، أتمنحيني الأمان والثقة بألا تغدري بي وأن يبقى الأمرسرًّا بيننا؟

أدركت الآن سر خوفه؛ إنه يظن أنني أستدرجه للإيقاع به، ولهذا هو يتخفى بكوفية، قلت وبلهجة واثقة: قل ولك الأمان. قال: هل تقسمين بالله أن يبقى الأمر سرًّا بيننا؟

قلت وفي نفسي شيء من الخوف أيضًا:

- نعم أقسم، وهل تقسم أنت أيضًا على ذلك؟ قال نعم أقسم.

وهكذا تعاهدنا وتبادلنا القسم على كتمان سرنا.

-إذن قل لي من أنت؟ بربك ألست رجل الثلج ذا الكوفية الحمراء؟

-نعم هو بذاته، ولكن كيف عرفتِ؟

-إذن هو أنت، من كان يضربني بكرات الثلج ذاك النهار، ألم تخش ملاحظة زوجي لك؟ لقد كنت في غاية الجرأة. ولكن قل لي أين تسكن؟ هل أنت ساكن في حيِّنا؟

- لا، لكنني لست بعيدًا عن حيكم. عندما تساقطت الثلوج توقعت أن تخرجوا للعب بها فأتيت زائرًا لحيّكم وقد كان لي ما أردت. قلت: ولكي تبعد الشبهة اصطحبت أبناءك معك، أليس كذلك؟

رد ضاحكًا:

-بالتأكيد، أنت في غاية الذكاء يا سيدتي.

انتهت المكالمة، وتركت في نفسي ارتياحًا كبيرًا وتبدد الخوف من داخلي، عندما أقسم لي على كتمان الأمر عزز من ثقتي به وأحسست بأنه قريب مني لا يبعد عني أكثر من المسافة التي بيني وبين الهاتف، وهذا الرجل الذي يطوف بين الصالة والمطبخ لا يهتم إلا بطعامه وشرابه وتمشيط لحيته ولا يهمه إن كان في هذا البيت امرأة أو حتى أطفال، يأكل وينام كالبعير، ليس هذا فحسب بل يخرج بحجة الدعوة إلى الإسلام، والإسلام منه براء، لا يطبق من الإسلام إلا القشور، ويستغل رجال الدعوة لزيادة أرباحه وتنمية تجارته، ولا يتورع من التعامل مع البنوك الربوية، ولا يزكي أمواله، ولا يهمه شيء إلا بطنه وتجارته.

****

ما زلت ألعن تلك الساعة التي اقترنت به فيها. كنت في بداية حياتي الجامعية، عدت ذات مساء إلى البيت منهكة القوى أتضور من الجوع، بادرت أمي بالسؤال:

-أمي..ماذا طبختِ اليوم؟

-ضحكت ثم قالت: لم أطبخ شيئًا اليوم؛ فنحن مدعوون عند بيت عمك "أبو صالح" لتناول طعام العشاء.

-ولكنني جائعة جدًّا أُمي، ولا أستطيع الانتظار، كما أنني لا أريد الذهاب معكم.

لم تدعني أكمل، قاطعتني قائلة: بل ستذهبين، ابن عمك صالح عاد من الخليج وعمك مصِرٌّ على وجودك.

تأففت كثيرًا وذهبت إلى فراشي مغاضبة أتمتم، وفي المساء أيقظتني أمي وذهبنا جميعًا إلى هناك.

كان لفيف من الأهل والأقارب قد اجتمعوا للسلام على صالح ابن عمي.

صالح كان يدرس الهندسة في روسيا، عندما سافر، لم أكن قد رأيت الدنيا بعد. يكبرني بعشرين سنة، ثم تخرج وتزوج ساقطة روسية قادته معها إلى تجارة المخدرات، فجمع ثروة ليست قليلة خلال عشرة أعوام، ثم طلقها وعاد

إلى عمان وأنشأ تجارة مع أبيه، ومكث سنتين أو يزيد في عمان. لم يعجبه الوضع وانهارت تجارته؛ فاضطر لمغادرة البلاد بسبب الديون المتراكمة عليه، وقد حصل على عقد عمل في إحدى دول الخليج، وها هو يجمع ثروة من المال وعاد من جديد ليتزوج من بنت الحلال، لم يكن يعرفني ولم يكن قد رآني من قبل، أخبرته أمه أن ابنة عمه قد كبرت وهي أولى به، ووافق عمي على ذلك وتم ترتيب هذه الدعوة لطبخ الموضوع على نار هادئة، أمام كل الأهل. وأنا وأهلي لا علم لدينا بما يدور في الكواليس.

استقبلنا صالح على باب العمارة، لم أستطع السيطرة على نفسي من الضحك عندما رأيته. قصير القامة، ذو كرش بارز أمامه أشبه ما يكون بالمرأة الحامل في شهرها التاسع، ذو رأس كبير منتفخ الأوداج، قصير الرقبة أشبه ما يكون بالعجل السمين، لباسه مهلهل وشعره أشعث لا يدخل البهجة أو السرور في قلب من يراه.

كنت ألاحظ بَحْلَقته المستمرة في وجهي، يطيل النظر ويتحين الفرص لتأتي عيني بعينه ليبادلني تلك الابتسامة الباهتة، لم يكن همي في تلك الليلة إلا الطعام، فأنا أتضور جوعًا، وأخيرًا جاء الطعام وتناولنا بعده الحلوى، ثم أراد أبي أن يستأذن في الخروج عندما استوقفه عمي الكبير أبو صالح:

- اجلس يا أبا محمد، أريدك بموضوع هام.

- اللهم اجعله خيراً (قالها أبي ثم جلس).

- نريد أن نخطب لولدنا صالح.

- نعم... ونعم الرأي؛ فهو بحاجة للزواج بعد هذا العمر.

- وقد اخترنا ابنتك هناء لتكون زوجة له على سنة الله ورسوله إن شاء الله.

وقع الخبر على مسامع أبي كالصاعقة، بقي واجمًا لم يحرك شفتيه وبدأ يبتلع ريقه لا يدري ما سيقول، فهذا أخوه الأكبر يكنُّ له احترامًا بالغًا ولا يعصي له أمرًا، وهذه هناء الابنة الوحيدة المدلّلة كيف يرميها بأحضان ذلك المسخ؟! لم يوقظه من سرحانه إلا صوت عمي الغاضب:

- ما لك صامتًا لا تتكلم، ألا يعجبك القول يا أبا محمد؟

- بلى بلى..ولكن...

- لكن ماذا؟ ها....؟

- ما هكذا تورد الإبل يا أخي، أنا جئت مدعوًّا لتناول الطعام والبنت تُخْطَبُ من بيت أبيها.

- وأنا كأبيها...أليس كذلك...أم تراك نسيت؟

- بلى بلى لم أنسَ..ولكن.....

لم يدعه يكمل فقاطعه قائلًا:

- لا عليك يا أخي، سوف نأتي لزيارتكم يوم الجمعة ونطلبها من أبيها. هل يرضيك ذلك؟

لم يجبه أبي، نهض ونهضنا معه تتملكنا الدهشة، وفي الطريق لم أستطع تحمل رؤية أبي وهو مهموم، قلت له:

- لن أتزوجه يا أبي، أرجوك أبي..لا أطيق النظر إليه، فكيف أتزوجه؟

- أنا مثلك يا ابنتي، ولن يكون له ما أراد، لن تتم هذه الزيجة، وليكن ما يكون.

قبل موعد الزيارة، اتصل أبي بعمي هاتفيًّا وأخبره أن البنت ما زالت صغيرة تريد أن تكمل تعليمها وهي لا تريد الزواج الآن، ثارت ثائرته وقال:

- تسع عشرة سنة عمرها، ليست صغيرة أبداً، ثم ما حاجتها للدراسة؟! على كل الأحوال لن تعمل بشهادتها؛ فالمال موجود والحمد لله.

حاول أبي جاهدًا في إقناعه لكنه ظل مصرًّا على القدوم يوم الجمعة، وقد أتى معه عمي أبو السعيد وعماتي نوال وزينب وكل أبنائهم، وبعد أن تناولوا طعام الغداء، قال عمي بلهجته الواثقة مخاطبًا أبي:

-تعرف يا أخي أن صالح في إجازة قصيرة، ولذلك سيكون كتب الكتاب يوم غد السبت إن شاء الله.

ضحك أبي ضحكة لا تنم عن السعادة وهز رأسه نافيًا. فرد عليه عمي:

-ماذا تقصد؟

-أقصد أن البنت غير موافقة.

-الله الله...ومتى كنا ننتظر موافقة بناتنا على ما نريد يا حاج؟

-من اليوم يا أبا صالح. هداك الله، نحن في القرن العشرين يا أخي.

- ليس الأمر بيدك أو بيدها بل الأمر بيدي أنا، أنا عمها الكبير، وأنا قلت هناء لصالح يعني لصالح، ولن تكون لغيره طال الزمن أم قصر.

هنا تدخلت قائلة وبحدة:

-على جثتي يا عمي...لن أكون له زوجةً حتى لو عشت عمري كله عانسًا.

رد بلهجة غاضبة: ترفعين صوتك على عمك..ألا تخجلين؟ ولماذا لا تريدينه؟ ما لعيب الذي فيه؟ ثم تابع، لن تتزوجي غيره...مفهوم؟ قلت: لن أتزوجه ولو كان آخر الرجال. قال: سنرى..

ثم خرج مع حاشيته غاضبًا ساخطًا وتركنا نعيش في رعب وخوف.

أبي هو أصغر إخوته، وهو المتعلم الوحيد بينهم، أرسلوه إلى الشام ودرس في كلية التجارة هناك، كانت الدراسة مكلفة جدًّا في ذلك الوقت وتولى عمي أبو صالح أمر الإنفاق عليه حتى نال الشهادة، مع أنه استرد كل أمواله فيما

بعد، حيث أخذ قطعة أرض من حصة أبي، ليس هذا فحسب، بل تكفل أبي بتعليم صالح أثناء دراسته في روسيا ردًّا للجميل، إلا أنه ما زال يمن على أبي بتعليمه. تلك هي نقطة ضعف أبي، وشعوره بالامتنان لأخيه الأكبر يجعله دائمًا مستمعًا، و"هذا عمي لا يعرف قلبه الرحمة، وابنه صالح أظلم منه، فكيف أعيش بينهم؟ لا... لا... لن يكون ولو بَقِيْتُ عمري كله دون زواج".

كان أبي حازمًا في موقفه وترك الأمر لي وقال: إياك أن تقبلي، وليحصل ما يحصل. أما ما حصل فقد كان فوق تصورنا واحتمالنا أنا وأبي، لم يَدَعْ عمّي مجلسًا إلا وشهر بنا، وحرّض كل أعمامي وعماتي على مقاطعتنا وأصبحنا نعيش كالمنبوذين، ليس ذلك فحسب، كلما تقدم أحد لخطبتي هدّدوه وقالوا له هذه البنت مخطوبة لابن عمها، إياك أن تقربها.

كان حصارًا أشبه بحصار أهل قريش للمسلمين، ولم يتوقف الوسطاء ممن كان يرسلهم عمي لي ولأبي وكان آخرهم أحد الشيوخ المحترمين والذين لا يرد لهم طلب.

وكأنه لا يوجد في الكون غير هناء. لم يعد الموضوع الآن حبًّا لي، بل هو التحدي وكسر العظم، ولم أطق رؤية أبي في هذا المأزق وهو يتألم من عداء

أقاربه له فقررت التضحية بمستقبلي والموافقة محتسبة أمري إلى الله. كان قراري قاسيًا على أبي، تقبله وكأنه يتجرع السم.

انهالت علي عبارات الثناء من عمي، جاءت زوجته الحيزبون تمطرني بالقبلات الكاذبة وتمدحني وتصفني بصاحبة العقل الكبيرالتي عرَفَتْ كيف تَحُلُّ المشكلة، صدّقتُ نفسي يومها أنني حللت المشكلة، لم أكن أعلم أنني سأخلق لنفسي وللمجتمع كافة آلاف المشاكل، قلت لهم لي شرط واحد هو أن أكمل تعليمي، فوافقوا واقتنع هو أيضًا بضرورة العودة النهائية من الخليج ليتزوجني ويعيد بناء تجارته من جديد، وقد كنت له خير معينة في سير أعماله الناجحة، إلى أن بدأ ينحرف عن الطريق، تخليت عنه ولم أعد أتدخل بأعماله.

ها هو يعود متأخرًا مخمورًا يترنح، لا يهتم إلا بما في الثلاجة من الطعام والشراب، يملأ معدته حتى يكاد كرشه ينفجر ولا يستطيع أن يتنفس، ثم يشرب القهوة ويبدأ بالاستفراغ، تسمع له زفيرًا كزفير الثور مرتميًا، وعلى يمينه في فراشه الوثير امرأة في مقتبل العمر غاية في الجمال والأنوثة تتقلب على جمر النار، تكتوي بنيران الحرمان.

لم تستطع كل محاولات الإغراء أن تحرك مكامن ذلك المتخم، يتعالى شخيره ويتعالى وقد أدار لها ظهره، مدعيًا التعب لستر عيب ضعفه وقدرته الجنسية.

لم يكن علاء أول المعجبين بي ولا آخرهم، كانت كلمات الإعجاب تمر على مسامعي كأزيز الذبابة لا آبه لتعليقاتهم.

ذات يوم التقيت بأحد جيراني لفتَ انتباهه جمالي فقال مادحًا:

-أنت يا أم خالد في هذه العمارة "وجه البكسة".

يومها لم أفهم ما قال، عندما سألت أمي ضحكت وقالت لي هذا مصطلح زراعي معناه أن البكسة - وهي الصندوق الذي توضع به الفواكه الجيدة على الوجه أي من فوق، بينما الثمار التالفة من أسفل - وهو يقصد أنك أجمل واحدة في العمارة. يومها لم أتمالك نفسي من الضحك، قلت: كل واحد وعلامه، وهذه هي ثقافته.

لكن علاء لم يتغزل بي أبدًا، ولم تصدر منه أية كلمة بغير مكانها، علاء مهندس وشاعر تلقى تعليمه الجامعي في أوروبا وحصل على شهادة الماجستير، ذو عقلية ناضجة متفتحة، وذو ثقافة سياسية عالية، عرفت ذلك من بعض كتاباته في الصحف والمجلات المحلية، وهو عضو فاعل في

نقابة المهندسين، وله ميول حزبية، وهو معروف على مستوى البلد، وله العديد من المعارف والأصدقاء، وهذا هو سر خوفه من الإفصاح عن نفسه.

ولكن ماذا يعنيني كل هذا؟ هو له زوجته وأولاده وعالمه، وأنا أيضًا لي زوجي وأولادي وعالمي، صحيح أنني لا أحب زوجي وأنني أجبرت عليه، لكنه يبقى زوجي وأبًا لأبنائي وسأبقى مخلصة وفيّة له ولبيتي، ولن تهتز ثقتي بنفسي أمام أي أحد، لذلك قررت إيقاف هذه المسرحية الهزلية، ولكن كيف؟ أفضل طريقة هي عدم الرد على اتصالاته، ولكن كيف سأعرف إن كان هو المتصل أم لا؟ إذن لا بد من تركيب كاشف للأرقام. ولكن الكاشف قد يثير فضول زوجي ويسيء لي وللرجل أو ربما يشتكي عليه للشرطة بداعي الإزعاج، وقد يحصل ما لا تحمد عقباه. فكرت في أن أفضل طريقة هي مخاطبة عقله لا قلبه، فطلبته على الهاتف وأخبرته أن ما نفعله هو خطأ كبير؛ فكلانا له زوج وعائلة، ولا يصح أن تستمر هذه المحادثات.

لم ألتفت إلى توسلاته، بل أغلقت السماعة بوجهه صارخة: خلاص .. خلاص .. لا أريدك أن تتصل بي ثانية هل تفهم؟

لكنه لم يتوقف وتوالت اتصالاته وكنت أرفع السماعة وأقفلها عند سماع أول كلمة منه، كنت أتألم له وأتمنى سماعه، لكن ما هو أقوى من اشتياقي له

هو خوفي من الله وخوفي على سمعة بيتي وأولادي، فقررت أن أضحي بقلبي، ثم إن للرجل أسرة، إن لم يكن يهمه أمرها فهو يهمني، فقررت أن أقسو عليه، عندما رن الهاتف أجبته بكلمة واحدة: خلّ عندك كرامة يا أخي، ابتعد عني أرجوك.

كان وقعها عليه كبيرًا ومدمرًا، أدركت فيما بعد كم أنها فتكت بكل أحلامه وكبريائه لحد البكاء، علاء الذي لم تعرف عيونه الدموع في المعتقلات يبكي بقيود الحب! يا لمهزلة القدر. في صباح اليوم التالي رن جرس الهاتف، لم أتوقع أن يكون هو بعد الذي سمعه، لكنه كان هو، لم يمهلني لقول هلو، بدأ يقرأ على مسامعي أبياتًا كتبها لتوه ما زلت أذكرها:

تسائل تارة عن كبريـــــائي ... وهل بي بالهوى و بصدّ إلـــــف
وتعلم أنني بالعزّ أحيـــــا ... وأنّي شامخٌ في الأفق أنفـــــي
لئن كان الهوى فيه انحنـــاءٌ ... فإني أنحني من كثر عطـــــفي
وما فقد الكرامة شيب رأسي ... ولا حمل الهوان عريض كتفي

وقبل أن يسمع كلمة واحدة مني قفل الخط.

ثلاثة أسابيع مرت كأنها دهر لم يتصل بي، أصابني ذلك بالحزن وشعرت بالاكتئاب، كم كنت أتمنى في قرارة نفسي أن يصر على مكالمتي، لكنني أيضًا كنت أتألم لمعرفتي أن ذلك خطأ ولا جدوى منه، لماذا تتحكم بنا النزوات وتغتالنا في لحظة ضعف؟ كان من الأجدر بي ألاّ أدخل معه بالحوار بداية، مثله مثل من سبقوه، كنت لا آبه بهم، ولا أكترث لما يقولون، لكن هذا الرجل جذبني إليه شيء خفي لا أستطيع له تفسيرًا، لا يلومَنَّني أحد؛ فالمشاعر قد خرجت عن السيطرة وأصبحتُ أسيرةَ الهاتف، أطالبُ بالتحررِ من هذا القيد الدامي.

أمام هذا التشتت وانعدام الوزن ترتسم صورته المجروحة أمامي فيعتصرني الألم من جديد. لا بد لي من اتخاذ موقف تجاه ما بدر مني من قسوة، ولكن كيف ؟ الهاتف ؟ لا... لا... مستحيل سوف تهتز صورتي أمامه وأفقد احترامي لنفسي.!

لم يطل بي التفكير كثيرًا.الحل في الهاتف، ولكن ليس هو المطلوب هذه المرة، إنها صديقتي سناء.

سناء هي صديقة طفولتي، كبرنا ودخلنا الجامعة معًا، هي درست الهندسة ومهتمة أيضًا بالسياسة والشئون النقابية وهي على اتصال دائم مع علاء،

وهم تقريبًا بنفس الحزب، على عكسي تمامًا، فأنا لم أكن في يوم من الأيام محبة للسياسة ولا للسياسيين، وأكره الأحزاب والتحزب، كم حاوَلَتْ سناء استدراجي للتسجيل في اتحاد الطلبة دون جدوى، كنت مهتمة بدراستي وحسب، ولم يمهلني الزمن حتى تزوجت ذلك الصنم رغم أنفي، على العكس من سناء التي عاشت حياتها الجامعية بالطول والعرض، وما زالت تمتلك مساحة كبيرة من الحرية، شخصيتان متناقضتان تمامًا، لكننا متحابتان ولا نفترق، تكمِّل كل واحدة منا نقص الأخرى.

اتصلت بها وعلى الفور أدرَكَتْ أنني في مأزق، ما هي إلا دقائق قليلة حتى كانت تجلس معي في حديقة المنزل.

سألتني بدهشة لا تخلو من الخوف:

-ما بك يا هناء ؟ قلقت عليك كثيرًا ؟

تبسمت ابتسامة حزينة، وقلت لها:

-دعيني أجهز القهوة أولًا وسأخبرك بكل شيء.

لم تكد تصدق ما سمعت أذناها.

سألت مستنكرة.

-علاء المرجاني ؟! علاء ما غيره!

-نعم علاء المرجاني ما غيره.

-لو لم أكن أعرفك يا هناء لما صدقت لو حلفتِ لي أغلظ الأيمان.....علاء..؟؟؟ أحقًّا فعلها؟ وكيف وأين رآك؟

-نعم فعلها، ولكن لم كل هذا الاستغراب يا سناء؟

-لأنك لا تعرفينه يا هناء، إنه أشبه بالقاصة الحديدية، لا يعرف سره أحد.

قلت: كيف ؟ قالت هل رأيته؟ قلت لا، صفيه لي.

قالت: رجل في غاية الوسامة وذو شخصية جذابة، يحب السياسة بل يعشقها، ولا يبالي بالنساء إطلاقًا،عشرات منهن يتمنين ابتسامة منه وقلبه أصم كجلمود الصخر. علاء ذو قلب يابس متحجر لا يكترث بالحب ولا يجيد الغزل ولا يحب مجالسة النساء، ولذلك أنا مندهشة مما تقولين.

-لا تندهشي، لا يوجد رجل لا يكترث بالحب والنساء. والآن أخبريني ماذا أفعل في هذه المصيبة؟

-الأمر في غاية البساطة، دعيه وشأنه، وبما أنه قد ابتعد فلماذا أنت قلقة؟ شخص حقير... فليذهب إلى الجحيم هو وكرامته المجروحة. قلت مندهشة من ردة فعلها:

- علمي بكما أصدقاء ورفاق طريق، والآن أراك تتكلمين عنه بحقد بالغ يا سناء،هل تكرهينه إلى هذا الحد؟ أم يا تُرى تسبب لك بأذًى فيما مضى ؟

أحرجها سؤالي وكأنني أدركت بقرارة نفسي أن الغيرة أخذت تنهشها، وقبل أن أسمع ردها قلت لها ضاحكة:

-لا عليك إنني أمازحك فقط، كما قلت ليذهب إلى الجحيم.لكنني أشعر بعذاب الضمير تجاهه ليس إلا.

قالت:

-أراغبة بالاعتذار له لترضي ضميرك فقط؟ قلت نعم. ولكن كيف ؟ لا تقولي لي الهاتف.. يستحيل أن أطلبه..لا أستطيع.

قالت، إذن اتركي الأمر لي وأنا سأوصل له اعتذارك بطريقة مناسبة.

-لا، أرجوك فأنا وعدته أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، ولا أريده أن يكتشف نقضي للعهد...أرجوك سناء ابحثي عن حل آخر، قالت: لا تقلقي سيصل له اعتذارك دون أن يشك، فقط اتركي الأمر لي. قلت كيف ؟ قالت لا أدري، هو الآن منشغلٌ بالتحضير للمؤتمر. قلت أي مؤتمر ؟ قالت غدًا سوف يعقد مؤتمرًا علميًّا في مجمع النقابات المهنية، وسيحضره جمع غفير من المهتمين.

أسررتها في نفسي وقررت الذهاب إلى هناك. وارتديت أجمل ما عندي من الثياب، ولبست لأول مرة منذ سنين الحذاء ذا الكعب العالي، أفاض عليّ جمالًا وأحسست بأنوثتي الطاغية، ووضعت قليلًا من أحمر الشفاه الشفاف على شفتي، وطليت أظافري باللون الأحمر، وكحلت عيني، وكان شعري بلونه الأسود منسدلًا على كتفي كالشلال.

رأيته يرتدي بدلة كحلية بربطة عنق حمراء، كان بالفعل وسيمًا جدًّا كما قالت سناء، بل وأكثر مما كنت أتصور، عندما تقابلت أعيننا أحسست بأن الأرض ستبتلعني، طأطأت رأسي ونظرت إلى الأرض، وكم تمنيت أن أرتمي بأحضانه أو على الأقل أتعلق بذراعه، كانت سناء محقة جدًّا، كل من حوله من النساء يتوددن له وهو لا يأبه بهن، لكنه كان سعيدًا جدًّا برؤيتي، واعتبر حضوري اعتذارًا.

****

كزهرة ذابلة في صحراء مهملة لم تكن تحلم في عز شهور الصيف أن تمر من فوقها ديمة محملة بالمطر، تسقيها على مهل ثم تغادر تاركة إياها تتفتح وتنشر أريجها في كل الأنحاء، كذلك كان علاء يومها فرحًا مسرورًا ومتألقًا، اصطحبني أثناء خروجي وأوصلني إلى سيارتي وبقي واقفًا يلوح لي بيده والابتسامة لا تفارقه حتى اختفيت عن ناظريه.

على العكس من علاء كانت سناء متكدرة غاضبة تنظر إليّ بعيون حاقدة ولم تأبه لما رأته من سعادةٍ تغمرني، على الرغم من أنني خزانة أسرارها فلم أكن أعلم أنها مغرمة به لحد الجنون. كل من هناك في النقابة أو في الحزب يعرفون افتتانها به وهو لا يأبه لها ولا لغيرها، ولم تخلُ نظرات أصدقائه من الغيرة والحسد عندما شاهدوه مهتمًّا بي على غير عادته، يومها كان هو حديث الساعة وأمطروه بسيل من التعليقات. احمرّت وجنتاه وتصبب العرق عن جبينه وهو لا يكاد يجد عذرًا لتبرير ذلك.

في اليوم التالي جاءت سناء لزيارتي، كانت عابسة متجهمة الوجه أخذت تشعل سيجارة تلو الأخرى على غير عادتها، أدركتُ أنها غاضبة ومتوترة، إنها غيرة الأنثى.

قلت لها بعد أن أعددت لها القهوة كالعادة:

-أرى في وجهك عبوسًا وأن لديك كلامًا، هيا يا حبيبتي أخبريني هل هناك ما يضايقك؟ قالت هل تصالحتم أنت وعلاء؟ قلت وما تعنين بالصلح ؟ فليس بيني وبين علاء إلا علاقة الأخوة، وقد زاد احترامي له عندما تفهم موقفي، ورجوته أن يعتبرني أختًا له. قالت وماذا قال لك ؟ قلت: اتفقنا على أن نكون أصدقاء فقط، ووعدني بعدم الاتصال بي ثانية.

انفرجت أساريرها وصمتت قليلًا ثم لم تتمالك نفسها من البكاء وارتمت في أحضاني وجعلتُ أُربّتُ على ظهرها كالطفلة الصغيرة، قالت وهي تمسح دموعها بمنديل:

-أحبه يا هناء...أحبه كثيرًا ولكنه لا يعيرني أي اهتمام.

مدركة لكل مشاعرها جعلتُ نفسي غيرَ عالمة بشيء فقلت لها بشيء من الغباء:

-من هو هذا الذي يستحق دموعك يا حبيبتي..إنه وبلا شك إنسان محظوظ ... هنيئًا له بك.

-رفعت رأسها ثم مسحت دموعها بمنديل واعتدلت في جلستها وقالت: اصدقيني القول، بربك حقًّا هذا ما حدث بينكما ؟ وهل حقًّا تخاويتما ؟ قلت

نعم.. وهل كنت تظنين شيئاً آخر؟ قالت: نعم؛ كل من رآكما ظنكما عاشقين، كان ينظر إليك بعيون العاشق، وأنت كذلك.

"يا إلهي لم أدرك ذلك، نعم كنت كذلك وهو أيضًا، لم أتمالك نفسي من النظر في عينيه الجميلتين ووسامته الطاغية"، قلت ضاحكة لأستدرك الموقف مطمئنة إياها: لا.. لا، أنت مخطئة، أنسيتِ أنني امرأة متزوجة؟ لقد انتهى كل شيء بيننا، ولكن أخبريني يا سناء لماذا كل هذه الأسئلة؟ قالت: لأنني أحبه يا هناء. قلت باستنكار:حقًّا؟! قالت وهي تومئ برأسها...نعم. قلت: ولم لم تخبريني بهذا من قبل؟ قالت: كنت سأفعل لكنك سبقتني بالقول فانتظرت ما سيحصل بينكما.قلت:

- وهل هو أيضًا يبادلك نفس الشعور ؟

- أحيانًا أشعر بأنه قريب مني، وأحيانًا أشعر أنه أبعد من الشمس...لا أدري، أنا في حيرة من أمري يا هناء.

قلت لها وقد بدأت نار الغيرة تأكلني:

-هنيئًا لك به إنه يستحق دموعك إذن، ولكن ألم تقولي إنه متزوج ولديه عائلة؟

-لا يهمني ذلك، سأتزوجه ولو بعد حين.

- أوَترضين أن تكوني الثانية؟

-لم لا؟ ما دام الرجل هو علاء فلا يهمني أي شيء حتى لو كنت الثالثة أو الرابعة. ثم إن زوجته لا تعيش معه وهما شبه منفصلين.

فاجأني حديثها، قلت: وأين تعيش إذن؟

-في أوروبا على حل شعرها.

- وعلاء كيف يدير أمور بيته؟

-تأتي والدته أحيانًا تمكث مدة ثم تأتي أخته الكبرى تعتني بالأولاد.

"هكذا إذن" قلت في نفسي.

تمنيت لهما التوفيق، وانصرفت سناء تاركة نار الغيرة تنهشني، تمزقني، تحرق أحشائي على رجل لم ولن أمتلكه في يوم من الأيام. وتَركَتْ في نفسي مزيداً من اللهفة والشوق للقاء ذلك الوهم.

أرفع سماعة الهاتف بين الحين والآخر لأقول له صباح الخير فيرد بمثلها ولا نزيد، أصبحت أستقصي أخباره من سناء.

عندما ذهبتُ ذات يوم لزيارتها وهي مريضة أخبرتني أن علاء والزملاء أتوا إلى زيارتها في المنزل، وقد تعرف علاء على والديها، قلت لها ممازحة:

- يعني زبطت معك ؟هل نقول مبروك؟

فردت بشيء من الدلع والدلال:

-يعني شيء من هذا القبيل.

قلت لها مداعبة:

- يا لك من داهية يا سناء. ومتى سنفرح بكم إن شاء الله؟

-لسنا على عجلة من أمرنا، يوم الجمعة عيد ميلادي وكل الزملاء مدعوون عندنا وأنت بالطبع مدعوةٌ، فما رأيك بالمجيء؟

-ألف مبروك مقدمًا حبيبتي، وعقبال المائة يا رب.

- ما قولك، هل ستأتين أم لا؟

-سأحاول، لا أعرف ظروفي. لكن هل أنت متأكدة أنه سيأتي؟

-طبعًا ولا تنسي أن الحفل كله أقمته من أجله. قلت ومن سيأتي أيضًا؟ هل هم زملاء العمل النقابي أم زملاء الحزب السياسي؟ قالت: لا أدري، لكن حتمًا سيكون هناك جمع غفير من الأصدقاء..فأنا دعوت كل من في المقر.

"عدد ليس بقليل من الأصدقاء! وسأكون أنا بينهم الغريبة الوحيدة، لكن رؤية علاء تستحق المجازفة، كما أن سناء ستغضب مني إن لم أحضر.غدًا سأشتري هدية وسأذهب وليحصل ما يحصل".

في اليوم التالي، أي يوم الجمعة مساءً، ذهبت إلى منزل سناء تنتابني كل أشكال الوساوس، وضعت قدمي المرتجفة على أول درجات السلم، أحسست بخطواتي متثاقلة وازدادت دقات قلبي وما إن هممت بقرع جرس الباب لم تقوَ أصابعي على الضغط عليه، أحسست أن قواي قد خارت وبدأت يدي ترتجف وقلبي ينبض نبضًا قويًّا كدت أسمعه بأذنيّ، بل ويكاد يخرج من صدري"يا إلهي، ماذا دهاك يا هناء؟ لم كل هذا الخوف وأنت الشجاعة القوية؟ كم مرة أتيت إلى هذا المنزل؟ كنت تدخلينه حتى دون استئذان، ما لذي جرى لك اليوم؟"

وما زالت الأفكار تعصف بي "لماذا أتيت من الأصل؟ ألست مرتبطة برجل؟ كما أن سناء صديقتك قد أخبرتك بأنها سترتبط بعلاء؟ فلماذا التطفل إذن؟عودي يا هناء إلى منزلك وأسرتك ودَعْك من هذا الرجل، إنك تلهثين وراء سراب لا فائدة ترجى منه، لو كان أحبك فعلًا لما تخلّى عنك بهذه البساطة وفضّل صديقتك عليك، إنه رجل كذوب مخادع يتلاعب بك، أووه وحتى لو أحبك ماذا ستصنعين بهذا الحب المستحيل؟"

اتخذت قراري بمغادرة المكان على أن أعود لزيارتها في اليوم التالي.

نزلت السلم مهرولة وأنا أشعر بلذة النصر على ذاتي، وقد هزمت شيطاني، وما إن وصلت إلى ناصية الطريق إذ بعلاء يترجل من سيارته هو ومجموعة من أصدقائه، جاءت عيني بعينه فخفضتها، بادرني بالتحية فرددت عليه بمثلها فقال:

-إلى أين يا سيدة هناء؟ أولست مدعوة إلى الحفل؟

أجبته مرتبكة والعرق يتصبب من جبيني:

-بلى ولكن زوجي هاتفني، هنالك أمر هام لا بد لي من الذهاب إلى البيت، وسأعود لاحقًا إن تمكنت.

-مؤسف جدًّا، أتيت من أجلك، لو عرفت ذلك من قبل لما أتيت.

كنت على وشك الصعود إلى سيارتي عندما سمعت آخر ما قاله، نزلت كلماته على أذنيّ بقوة القنبلة، ففجرت مكامن السعادة في كل أجزاء جسدي المرتعش لدرجة أنني لم أستطع تحرير سيارتي من بين السيارات المصطفة، كانت قدماي ترتجفان وكدت أصدمها وهو واقف يتابع حيرتي وقلة حيلتي وارتجاف يديّ، جاء ناحيتي وقال:

-هل تسمحين لي بمساعدتك؟

-تبسمت وقلت بخجل واضح: لو سمحت أتمنى ذلك، والله تصنع معروفًا.

ما إن وصلت المنزل وإذا بالهاتف يرن. كانت سناء معاتبة ومستغربة، اعتذرت لها وقلت لها إن زوجي اتصل بي وأخبرني أن هنالك من سيأتي لزيارتنا، ووعدتها بزيارتها لاحقًا.

مر أكثر من أسبوع لم أكلم أحدًا ولم يكلمني أحدٌ، أتصفح الجريدة اليومية صباح كل يوم كعادتي، أبحث عن شيء بين طياتها، أنا نفسي لا أدري ما هو، أقرأ كل الإعلانات وعروض البيع وأسعار الشقق والأراضي وليس لي هدف منها، بلمحة من طرف عيني، لمحت إعلانًا عن أمسية شعرية في مجمع النقابات المهنية بمناسبة يوم الأرض، يحييها نخبة من الشعراء.نعم..تلك هي ضالتي، أمسية شعرية لا يمكن لعلاء وهو شاعرالأرض والوطن أن يغيب عنها، سأذهب، ولكن لا بد من الاتصال بسناء التي أكدت الخبر بل وقالت إن علاء من المشاركين في هذه الأمسية.

قررت اصطحاب زوجي، حاولت معه بشتى الوسائل فأبى، قال:

-أنا لا أهتم بالشعر ولا بالسياسة، اذهبي وحدك إن شئت. قلت: حسنًا، والأولاد؟ قال: سآخذهم معي إلى بيت أهلي.

ذهبت مبكرة كي أحظى بمقعد في مكان مناسب، ولكن على ما يبدو أن الكل فكر مثلي، عندما وصلت وجدت القاعة تغص بالحضور ولم أجد مكانًا خاليًا إلا في الصفوف الخلفية، كنت أفتش عن سناء لعلي ألمحها، قد تجد لي مكانًا أفضل، وفجأة لمحتها جنبًا إلى جنب تسير مع علاء، أحيانًا تهمس بأذنه ولا أدري ماذا تقول، كانت أصوات الغناء والأناشيد الوطنية طاغية."ألا ترين يا هناء كيف يتهامسان؟ إنهما وبلا شك عاشقان" تلك القناعة أصابتني بالإحباط، شعرت بالغثيان فقررت الانسحاب من حياتهما معًا، بقيت قابعة في مقعدي دون أي حركة، لا أريد أن يشاهدني أحد واكتفيتُ بالنظر والاستماع.

على أطراف القاعة اصطف أصحاب الكاميرات من مصورين وصحفيين، يتخللهم مجموعة من الشباب والشابات في مقتبل العمر يعلقون على صدورهم بطاقات تدل على أنهم المنظمون والمشرفون على الحفل.

وعلى المنصة وضعت طاولتان مستطيلتا الشكل تمت تغطيتهما بشرشف أبيض تتوسطهما أكاليل الزهور وكاسات الماء.

وفي الخلف وعلى الجدار علقت صورة للملك حسين بن طلال، وعلى اللافتة كتب بالخط العريض (تحت رعاية معالي وزير الإعلام مجمع النقابات المهنية يحتفل بيوم الأرض).

صعد الشعراء إلى المنصة يتوسطهم علاء، وعلى الميكروفون وقفت شابَّة جميلة ترتدي الزي الشعبي الأردني وهي عريفة الحفل على ما يبدو، رحبت بالضيف الكبير (الشخصية الاعتبارية) الذي يجلس في الأمام والنقباء ورؤساء الأحزاب، ثم بدأت بتقديم أسماء الشعراء المشاركين، وعندما ذُكِرَ اسمُ علاء المرجاني نال الحظ الأوفر من التصفيق حتى وقف الجميع على أقدامهم احترامًا له، وأنا أيضًا وقفت معهم، وعندما جلسوا بقيت أنا واقفة أصفق لوحدي فلمحني علاء فأشار إلى سناء فأتت إليه مسرعة، ثم همس بأذنها وأخبرها بوجودي وأشار لها نحوي بيده فأتت مهرولة والفرحة تملأ كيانها، احتضنتني بحرارة ورحبت بي أجمل ترحيب ثم اقتادتني من يدي وأجلستني على مقعد في الصف الأمامي مع علية القوم.

بدأ الشاعر الأول بإلقاء قصائده، وما إن انتهى حتى جاء دور علاء.

صعدت عريفة الحفل إلى الميكروفون وقالت:

-والآن مع شاعر الوطن شاعر الحب والغزل المهندس الشاعر علاء مرجان....

تصفيق حار وحاد.

بعد أن بسمل ورحب بالحضور قال:

أيها الإخوة والأخوات، بينكم شخص عزيز علي، لم أره منذ زمن، فاسمحوا لي أن أرحب به بهذه الأبيات:

أحن إليـــــك يا خلّي وإني
سأكتبها وبالخط العريـــضْ
فلا يشفي غليلي منك قـــربٌ
ولا نظم القصائد والقريـضْ
لغيرك ما تبسمت الثنـــــايا
وما بالقلب يطفح أو بفيـضْ
لعمرك ما أتيت بفعل قبـــح
ولا ذنبًا جنيت وما يغيـــضْ
ولا أوليت للحســـــاد بـالًا
ولا أطرقت سمعي للمريـضْ
ولا أرجو النصيحة من لئيـم
ولا أرجو المودة من بغيـــضْ

ما كاد ينهي القصيدة حتى أصبح لدى كل من بالقاعة فضول ليعرفوا من هو هذا العزيز، عندما أشار نحوي ببنانه أطرقت رأسي وخبأت وجهي بيدي تلاشيًا لكاميرات المصورين، وعلاء لم يتوقف عن النظر في عيني. ثم ألقى قصيدته المشهورة بعنوان (سنعود):

نعم سنعـــــــود برغـم الأسى
برغم الحدود برغم السـدود
برغم الجدار ورغم الجـــنود
برغم المتاريس وجيش اليهـــود
برغ المحاجـــر رغم المجـــازر
وذبح الصغـــــار بكل بـــرود
ورغم السجون وخوض المنـــون
ورغم الظنون بألا نعـــــــود
ورغم الرضيع إذا ما ســـــأل :
بأي ذنب فقدنا الأمل بهذا الوجود
برغم أزيز الرصاص الشديـــد
وقصف المباني وحرق الـــورود
برغـــــم الخيانـــــــة
برغـــــم الإهانـــــــة
ومن لا يراعون صدق العهـــود

برغـــــــم العمالـــــــة

برغـــــــم النذالـــــــة

برغـــــــم الحشـــــود

ورغـــــــم المصـــــاعب

ورغـــــــم المتاعـــــب

ونســـــــل القـــــرود

نعـــــم سنعـــود إلى أرضـنا

نعـــــم سنعـــــــــود

ولـــكنـــنا

سنقتلع الخـــــوف من دربنا

حلفنا يميـــــــنًا بألا نعـــود

إلى قتـــــل أبناء أوطانـــنا

برغم اختـــــلاف اعتقاداتنا

كســـــرنا الجمـــــود

برغم المباحث ... رغم السجـــون

وكسر الأصابع وطمس العيـــون

فإنا كفـــــرنا بحكـــامنا

وإنا كتبـــــنا بأقلامـــــنا

لغير الإله رفضنا السجـــــود

انهالت القاعة بالتصفيق، وعندما أنهى وصلته ارتفعت أصوات عديدة تطالبه بالمزيد، وأنا قد أصابني الذهول لما لهذا الرجل من كاريزما وحضور.

نهضت مسرعة أريد المغادرة فتبعتني سناء غاضبة قالت:

-ما كان ينبغي له أن يشير إليك بيديه.

-نعم لقد أحرجني جدًّا.

قلت ذلك واتجهت نحو الباب أريد الخروج فسألتني:

-إلى أين ؟

-إلى البيت طبعاً.!

-لماذا ؟ ألا تنتظرين لتناول الشاي والعصائر ؟

-لا لا أريد، دعيني أذهب لقد تأخرت، اذهبي أنت وابقي بجانبه، أليس عريس المستقبل؟

-نعم، ولكن ألا ترين كثرة المعجبين حوله ؟ لننتظر لحظة حتى ينفضّوا ثم نذهب إليه معًا؛ فقد أوصاني أن أعتني بك.

-حقًّا ؟ قلت ضاحكة.

-ألا تصدقين ؟ اسأليه إذن.!

-ولكنني لا أحب أن أكون عذولاً.

-دعك من هذا كله واتبعيني إلى الشاي هيا.

كان جالسًا على مقعده يوقّع على بعض النسخ من ديوانه الجديد للمعجبين وهو في كامل أناقته ورجولته، تقدمتُ نحوه فهب واقفًا على قدميه مرحبًا ترحيبًا حارًّا.

بادرته بالقول:

-أبارك لك هذا التميز أيها الشاعر الرائع.

-أشكرك يا سيدتي وأشكر اهتمامك وحضورك المميز.

ثم التفت إلى سناء وقال:

-هل تناولتم شيئاً؟

قالت:

-لا نحن بانتظارك.

-إذن هيا بنا إلى الشاي.

تناول كل واحد منا طبقًا من الحلوى وكأسًا من الشاي وجلسنا في ركن هادئ، قلت له:

-هي فرصة أيضًا كي أبارك لكما أنت وسناء بالخطوبة.

كان يرتشف الشاي، وعندما سمع ما قلته شرِق به وكادت روحه تفارق جسده، فهرعنا إليه بالماء كي يستعيد وضعه، وبعد هنيهة اعتدل في جلسته وقال:

-ماذا قلت؟ خطوبة؟...أنا وسناء؟

تلبكتُ واحتارت الكلمات على لساني وقلت:

-نعم..ألستما متفقين على الزواج؟ قال ومن أخبرك بذلك ؟ هل هي سناء؟

قلت: نعم...هي أخبرتني.

كاد الدم يتفجر من عروقه يريد أن ينفجر من الغضب قال:

- تلك المجنونة، لا بد من قطع لسانها وإيقافها عند حدها.

قلت مستغربة:ألأنها أخبرتني؟ قال ،لا.. لا...لأنها مجنونة... وقد فقدت عقلها.. بالفعل يجب أن أضعها عند حدها.

في الأثناء تأتي سناء حاملة بيدها صحنًا من الموالح تريد تقديمه لنا، ابتدأت به قائلة:

-تفضل....بعض من الموالح مع الشاي.

ما كادت تنهي كلامها حتى قال لها هامسًا بأذنها:

-إياك أن تفعلي أو تقولي عني أية إشاعة مرة ثانية، عندها لن تلومي إلا نفسك، وستجدين ما لا يسرك..هل تفهمين ؟

هزت رأسها بخضوع وقالت:

-نعم...أفهم...

ثم ولت مدبرة وغادرت المكان، وبقيتُ معه وحدنا محرجة خائفة لا أدري ماذا أقول، عندما هممت بلحاقها قال لي بلهجته الآمرة:

-اجلسي يا هناء.

فجلست طائعة خاضعة خائفة وقلت:

- ماذا لديك ؟ماذا تريد مني ؟

- لا تخافي يا هناء أنا لا أريد منك شيئًا، فقط أحببت أن أخبرك أنه لا مكان لما قالته سناء من الصحة، كما أود أن أخبرك أنني لم أعجب بامرأة غيرك ولا يطيب لي الحديث إلا معك.

كلامه هدّأ من روعي وأشعرني بالسعادة البالغة، رغبت بسماع المزيد، لذا اكتفيت بالنظر إلى عينيه مصغية، قال: هل لي أن أراك غدًا ؟ هناك ما سأخبرك به. قلت: وهل هو من الأهمية بقدر أنك لا تستطيع إخباري به الآن؟ قال: نعم، أرجوك.

لم يطل تفكيري فقلت له:

-أنا امرأة متزوجة وأنت كذلك ولا يصح أن نلتقي كالعاشقين، أليس كذلك؟

-أعرف ذلك ولكن دعينا نلتقي بمكان لا يجلب الشبهة لكلينا؟

-أين ؟مثلًا؟

-في مقر الحزب، عشرات الأشخاص يدخلون ويخرجون ولا يشك أحد أنك أتيت لمقابلتي، تدّعين أنك معجبة بأفكار الحزب وتريدين الانضمام إليه. فما رأيك؟

ضحكت ضحكة عالية حتى احمرت وجنتاي فقال:

- لم تضحكين ؟هل قلت نكتة مثلًا؟

-لا لا أبدًا، إنما ضحكت لأن الفكرة قد راودتني من قبل، أظنه توارد أفكار. أليس كذلك ؟

تبسم قائلًا:

-إذن أنت موافقة؟

-نعم بالتأكيد ولكن ألن تكون سناء هناك؟

-لا أدري. سناء قد لا تأتي بعد الذي حصل بيننا.

-إذن سآتي معها وأحاول إصلاح ما فسد بينكما.

رد غاضبًا:

-أرجوك هناء، هذه الفتاة لا أطيقها. أَفْهِمِيْها ذلك، فإن اقتنعت فلا بأس.

-سأحاول.

الفصل الثاني

في مقر الحزب ..

ترددت في الذهاب إلى هناك، ومر زمن ليس قليلًا على تلك الحادثة، دار خلاله حوار طويل بيني وبينها اقتنعت بالنهاية أن لا أمل لها به، بكت وشكت وتظلمت وثارت وهددت وتوعدت ولكن بنهاية الأمر تبقى هي مثال الأنثى المغرمة التي لا حول لها ولا قوة. أما وقد خفت حدة التوتر لديها فقد اتفقنا أن نذهب معًا إلى مقر الحزب.

في المساء أنجز الأطفال واجباتهم المدرسية وخلدوا إلى النوم بعد أن تناولوا وجبة العشاء، تصفّحتُ الصحيفة كعادتي أبحث عن شيء مفقود، لم أجد فيها ما يثير اهتمامي، أغلقتها وبدأت أقلب محطات التلفزيون محطة تلو الأخرى، لم يستقر رأيي على محطة بعينها، الأخبار تشعرني بالغثيان؛ لا نسمع إلا أخبار القتلى والجرحى. ممارسة جنود الاحتلال ضد أهلنا في فلسطين تجعلني أشعر بأنني أنتمي إلى أمة أشبه ما تكون بقطيع من الأغنام. والمسلسلات المكسيكية لا تلائم واقعنا ولا تروق لي - باستثناء مسلسل امرأة برائحة القهوة- كما هي المسلسلات المصرية خالية من الإبداع والإثارة.

بصراحة كنت قلقة وفرحة وخائفة في الوقت نفسه، دقات الساعة على الحائط تشعرني بأنني لست وحدي وفراشي الخالي لا يشتاق لي، أصبح يملُّ كثرة تململي وشكواي، أطفأت الأنوار وخرجت إلى الشرفة مع أفضل صديقة لي، ألا وهي السيدة أم كلثوم، وبدأت أستمع لها وكلي سعادة وسرور:

أغدًا ألقـــاك؟ يا خوف فؤادي من غـــــد
يا لشـــوقي واحتراقي في انتظــار الموعـــــد
آه .. كم أخشى .. غدي هذا .. وأرجوه اقترابا

لله درك أيها الشاعر الهادي آدم! كيف انتقيت هذه الكلمات؟! وكأنك كنت تسألني ماذا أريد أن أقول.

أنا لولا أنت لم أحفل بمن راح وجـــــاء
أنا أحيا بغـــــدي الآن بأحلام اللقـــــاء
فأت أو لا تأت .. أو فافعل بقلبي ما تشاء

حتى قارَبَ الصبح على التنفس، صليت الفجر وتلوت جزءًا من القرآن، شعرت بالراحة والطمأنينة. يبدو أنني غير منطقية، فمن أم كلثوم إلى الصلاة والقرآن وأملي بغفران الذنوب، صراع نفسي بداخلي يخالج الكثيرات من بنات عصري بل والرجال أيضًا، هي ضريبة الحياة العصرية وعصر تناقض الأفكار، أنا لا أدعي الكمال لكنني أخاف الله في كل ما بدر مني فألجأ إلى الاستغفار.

لم أر في ميولي ولهفتي للقاء ذلك الرجل ما يشين، وما هو إلا حديث عابر واستطلاع للمستقبل. استأذنت للخروج من عملي وركبت سيارتي متجهة إلى جبل الحسين حيث مقر الحزب، عانيت كثيرًا من الازدحام المروري، وعانيت أكثر في إيجاد موقفٍ لركن السيارة. دخلت المبنى وانتظرت المصعد وما هي إلا دقائق حتى كنت ألج إلى ذلك المقر، طالعتني لافتات وطنية وصور لزعماء وطنيين كجمال عبد الناصر وتيتو وغاندي وجيفارا، وطالعتني أيضًا وجوه باسمة مرحبة بي.

تقدمت نحوي صبية تتوشح كوفية حمراء تسألني بعد أن حيتني: تفضلي يا مدام. قلت: هل السيد علاء موجود؟ قالت: نعم، اتبعيني أرجوك.

كان ينتظر قدومنا على أحر من الجمر، شكرها وطلب منها أن تحضر القهوة بدون سكر.

كان يجلس خلف مكتبه المتواضع تتراكم فوقه بعض الكتب والمجلات والملفات، وعلى يمينه شماعة علق عليها معطفه الأسود الكشميري ولفحة عنقه وكوفية حمراء. وعلى يساره مسجل صغير الحجم وكاميرا. وكان يتلذذ بموسيقى هادئة تبعث من ذلك المسجل.

نهض من خلف مكتبه وتقدم نحوي مصافحًا وجلس على الأريكة وأجلسني على الأريكة المقابلة، تفصل بيننا طربيزة وضعت عليها دلة قهوة وبضع فناجين، تناول واحدًا منها وسكب لي قليلًا من القهوة الأردنية المرة والتي كانت تطفح بطعم الهال.

جلسنا في مكتبه لبضع دقائق حيث قال لي أنه وضع النقاط على الحروف بالنسبة لعلاقته مع سناء، وما زلنا نتداول الحديث وإذ بها تدخل علينا مع صديق لها اسمه أحمد تبين أنه مغرم جدًّا بها، لكنها لم تكن تعره اهتمامًا من قبل أملًا بالوصول إلى علاء، فلما يئست استجابت له ونشأت بينهما علاقة رائعة.

قدّمه علاء لنا وتجاذبنا أطراف الحديث، لم أكن أعلم أنه قد اتفق مع علاء ورسما خطة لإخلاء الجو لي وله، ما إن شربا القهوة حتى قال مخاطبًا سناء:

-الزملاء في اجتماع وهم يريدونك على الفور يا سناء.

ثم نهض وأمسك بيدها وأخرجها من المكتب وهما يضحكان.

بقينا وحدنا، ساد صمتٌ رهيبٌ لم يتفوه أحدنا بكلمة، حتى بدأت أنا بالحديث عن الطقس ثم عن الشعر والأدب والفن والموسيقى وحتى عن الطهي. حين طال انتظاري لما سيقول، أدرك بفطنته أنني بدأت أتململ وأنظر إلى ساعتي قال:

- اسمعي يا هناء، أنا سأسافر إلى أوروبا ولا أدري متى سأعود، أريدك أن تعرفي أنني أحببتك، ولا أريد بك شرًّا أو سوءًا لا سمح الله، أعرف أنك متزوجة وتحبين زوجك وبيتك، فلذلك لن أكون سببًا في تعاستك أو خراب بيتك، سأبتعد عنك في جسدي أما روحي فستبقى معك إلى الأبد، لكنني أعدك بالخروج من حياتك إذا كان هذا ما يرضيك.

ثم ساد صمت رهيب لم يتكلم أحد منا، عصفت بي الأفكار "ويح قلبي لماذا لم أصادفه من قبل؟ لماذا لا يتقن زوجي هذا الفن من المعاملة؟ لماذا لا يملك زوجي هذا السحر الرجولي؟ يا لتعاسة بختك يا هناء، يظن أنك سعيدة وتحبين زوجك، يا له من مسكين، ليته يعرف الحقيقة المرة".

- لم أستيقظ من شرودي إلا عندما أحسسته يمسح دموعي وقال:

- ما بك يا هناء؟ هل آلمك حديثي؟

- قلت والدموع ما زالت تنساب من عيني:

- وهل أنا سبب ابتعادك وسفرك؟

- نعم...هذا أحد الأسباب. قلت وما السبب الآخر؟ قال...هنالك بعض المسائل المتعلقة بزوجتي الإيطالية، لقد رفعت قضية تطالب بحق الحضانة للأولاد، وقد كسبت القضية بالاحتفاظ بالبنت، أما خالد فسيبقى معي هنا، سأطلقها، وأعود إن شاء الله.

-وهل زوجتك أجنبية؟ قال: ألا تعرفين ؟ قلت لا، من أين لي أن أعرف؟

-غريبة جدًّا، ألم تخبرك تلك الثرثارة سناء ؟

-لا لا لم تخبرني.

حسنًا ها أنت قد عرفت.

حقًّا صدق من قال أن البيوت أسرار. من يدري ربما يكون أكثر تعاسة مني وإلاّ ما لذي يجعله يلهث خلفي؟ الجمال؟ هنالك الكثيرات حوله من هن أجمل مني ؟ المال؟ ليس لدي مال.. المنصب؟ ليس لدي منصب.لا بد أن يكون مثلي يعاني من الفراغ العاطفي يحتاج إلى لمسة حنان تشعره بالدفء والطمأنينة، ولكن لماذا أنا بالذات؟! لا أدري. لكنني بكل تأكيد بتُّ لا أريده أن يخرج من حياتي.

عاصفة ثلجية ..

انقضى فصل الصيف بحلوه ومره، ولم يمكث طويلًا هناك ،عاد من أوروبا وعاد معه فصل الشتاء ببرده وعواصفه من جديد، كم أحب هذا الفصل من السنة، أبتهل إلى السماء أن تأتي عاصفة ثلجية، تثلج صدري بذكرى علاء الذي انقطعت أخباره عني.

وكأن الله استجاب لدعائي؛ فهاهي الثلوج تتساقط منهمرة على حيِّنا مرة أخرى، كانت فرحتي أكبر من فرحة الأطفال؛ فالثلج بالنسبة لهم يعني الفرح والمرح ثم الغياب عن المدارس وهو الأهم، أما بالنسبة لي فهو يعني رجل ثلج بكوفية حمراء، إن لم تجلب هذه الثلوج علاء فسأجلبه أنا، سأصنع له تمثالاً من الثلج وألبسه كوفية حمراء.

قلبي يكاد يقفز من مكانه كلما رأيت رجلًا ذا كوفية حمراء يمر من هنا، بدأت أعد الساعات، جلست على مقربة من النافذة أراقب الأولاد وهم يلعبون ويصخبون وقد انضمَّ إليهم أهاليهم وبدأوا يصنعون الكرات الكبيرة من الثلج، ومنهم من صنع لنفسه مزلاجة يتزلج عليها، ومنهم من يرمي صاحبه بكرة ثلجية صغيرة، وهاهم يصنعون رجل ثلج ألبسوه قبعة أوروبية ولفّوا

على رقبته لفحة صوفية، الأنف كانت جزرةً والفم والعينان من الطين الأسود، يقفون بجانبه يلتقطون الصور التذكارية وهم في غاية المرح والسرور.

أما أنا فقد كان لي رجل ثلج آخر ذا كوفية حمراء وعيناه زرقاوان وشفتاه تقطران شهدًا، ولكن أين هو يا ترى؟ لو كان في عمان حتمًا سيأتي، فالثلج هو بطاقة دعوة له لزيارة حيِّنا، لا بد أن يأتي.

اتجهت الى ذلك النائم محاولة إيقاظه من سباته العميق، قلت له:

-تعال يا زوجي العزيز وشاهد ما يجري في الخارج الكل فرح وسعيد بهذا البساط الأبيض. هيا انهض ودعنا نخرج نلعب مع الصغار ولنصنع رجل ثلج.

رد متثائبًا:

-تعرفيني يا امرأة، لا أحب الثلوج لأنها تعطل تجارتي، العبي أنت والأولاد، أنا أريد أن أنام.

خرجت مع الأولاد وصنعنا ذلك الرجل من الثلج. مكثت بجانبه طويلًا عسى أن تدب به الروح ويتحول بقدرة قادر إلى علاء. تجمدت يداي وفقدت الإحساس بالقدمين وعدت مكسورة الفؤاد إلى منزلي، وضعت يديَّ على

المدفأة حتى عاد لهما النشاط وبدأت الأفكار تشطح بي من جديد.لاحظ زوجي ارتباكي وسرحاني فسألني:

-ما بك يا هناء ؟ أراك مضطربة على غير عادتك؟ هل أنت مريضة؟

-لا... لا..يبدو أن البرد قد أثّر بي ليس إلا.

ثم تركته يشاهد التلفاز واتجهت إلى غرفتي وأخذت قسطًا من الراحة، مر اليوم ثقيلًا كأنه سنة، ولم أستطع النوم ليلتها، بقيت ساهرة حتى الفجر، رفعت طرف ستارتي فأبهجني منظر الثلوج التي عادت تتساقط من جديد، ساعات قليلة توقف الثلج عن السقوط وبزغت أشعة الشمس لفترة قصيرة بمنظر أخاذ وشاعري.

خيوط الشمس تحوّل حبيبات الثلج المنعكسة عنها لأشبه ما يكون بخيوط الذهب، يكسر الصمت زقزقة عصافير الدوري التي نهضت باكرة تعزف ألحان الجوع تبحث عن قوتها بعد أن مرعليها يوم عصيب من الجوع، جائعة مثلي، لكنني سأسد رمقها بفتات الخبز فهي ضيفة عندي وفي منزلي وعلى أشجار حديقتي، أما أنا فمن ذا الذي سيسد رمقي ولوعة اشتياقي لرجل الثلج؟

لا بد لك أن تشكريني أيتها الطيور المسكينة الضعيفة وشكرك لي أن تخبريني عن رجل الثلج، هيا اذهبي أيتها الطيور وائتني منه بخبر يقين، هيا...لا تقولي الشوارع مغلقة أو عطلة رسمية وأنت تستخدمين الفضاء.

آليات مدنية وعسكرية تعمل جاهدة لفتح الطرقات الرئيسية، فرق الدفاع المدني تحاول الوصول إلى من يطلبون المساعدة، وهنالك من تدمرت منازلهم ومن تعرضوا لحوادث سير نتيجة الانزلاقات، وحدهم الأطفال لا يشغلهم شاغل إلا اللعب بالثلج والتحرر من الواجبات المدرسية، أما موظفو الدولة فهم في غاية السعادة على العكس من التجار الذين لا يستطيعون فتح محلاتهم التجارية.

أنا كنت مختلفة جدًّا عنهم جميعًا، فرِحتُ بالثلج لعله يأتيني بعلاء، وحزِنتُ على مصائب الآخرين وفوق كل هذا أشعر بالوحدة والملل.

"لن يأتيَ يا هناء، نعم ألست أنت من طلبت منه ألا يأتي؟ فلماذا تلومينه إذن؟ لا تلومي إلا نفسك. حتى ولو كان ذلك فلا شيء يمنع علاء من المجيء إلا أمر جلل.

رفعت سماعة الهاتف باحثة عن سناء، فقلت لها بعد أن تبادلنا مقدمات الترحيب: ما هي أخبار علاء؟ هل ما زال في إيطاليا ؟ قالت بربك ألا تعلمين ؟ لقد عاد إلى عمان قبل أسبوع.

"بدأت الأفكار السوداء تعصف بي؛ فاستغللت فرصة خروج زوجي من المنزل واتجهت إلى ما يذكرني به، إنه الهاتف، استجمعت قواي ودون تردد طلبته، لم أنتظر رده، المهم أنني أشعرته بوجودي إن كان موجودًا حيًّا يرزق فلا بد أن يتصل بي.

أنا خجلة منه أكثر مما أنا خائفة، كيف سأبدو بنظره بعد كل تلك الكبرياء والشموخ، لا بد أنه سيراني ضعيفة الشخصية، سهلة الانقياد.

بين حبي لأولادي وإخلاصي لزوجي وخوفي من الله، هناك رغبة جامحة في صدري وصوت يصرخ بي " كلميه يا هناء ولا تخافي، كلميه وسترين كم سيكون سعيدًا، إنك أخته ليس إلا والأخت تكلم أخاها..كلميه.....كلميه...كلميه" وما زال يصرخ بي شيطاني حتى كلمته.

كالعادة بقيت صامتة وأنا أستمع إلى أنفاسه وهو يقول ألو...ألو....

"إذن هو بخير والحمد لله. ولكن لماذا لم يأت؟ وقد طال انتظاري، لعله يبادرني باتصال ولكنه لم يفعل، ألهذا الحد أصبحت لا أعنيك يا علاء؟

ساعتان مرتا كأنهما شهران. الآن أنا كرائدة فضاء في منطقة تخلو من الجاذبية الأرضية أطير في الفضاء كما الريشة في مهب الريح فقدت اتزاني أشعر بنفسي كالفراشة حول القنديل تعرف أنها ستحترق ولا تبالي، طلبته هذه المرة:

-ألو...أنا هناء.

رد:

-أهلا أهلا بك يا هناء...كيف حالك؟ قلت بدلع واضح: لست بخير! أدركها وسأل وهو يتوقع الإجابة: يا ساتر يا رب...لماذا؟ قلت لم تسأل عني، ظننتك ما زلت مسافرًا. قال: آه نعم لقد كنت مسافرًا ووصلت قبل عدة أيام، ثم سألني، ولماذا أنت لست بخير؟ قلت لأنك لم تأت، قال إلى أين؟ قلت إلى حيّنا بالطبع. قال مازحًا ولم آتي إلى حيّكم؟ قلت: للعب بالثلج. ألا تحب أن أوسعك ضربًا بكرات الثلج؟

أطلق ضحكة عالية وقال:

- في حينا أيضًا يوجد ثلج.

- وهل صنعت رجلًا ثلجيًّا؟

- في الحقيقة لا.

- اسمع، بالأمس انتظرتك، توقعت قدومك فصنعت لك رجل ثلج يشبهك، ألا تحب أن تراه؟

- ليتني أستطيع.

- وما الذي يمنعك؟

- الثلج. قال ضاحكًا ثم استأذن وقفل.

- قفل السماعة لكنه لم يقفل قلبي، كلما ابتعد عني أحسست برغبة جامحة للاقتراب منه واللحاق به.

بعد ساعة تقريبًا سمعت في الأخبار أن بعض الطرق أصبحت سالكة فعاودت الاتصال فردت امرأة أجنبية وهي لا تجيد اللغة العربية ولا حتى الإنجليزية، عرفت أنها الخادمة، استطعت أن أفهم منها أنه ليس بالبيت وأفهمتها بصعوبة بالغة أن المتصلة من مكان عمله وهم يريدونه لأمر هام. مر زمن ليس بقليل ولكنه لم يتصل، وقد سئمت من الانتظار فطلبته ثانية فوجدته واستخدمت هذه المرة دهاء النساء. قلت:

- أما سمعت الأخبار؟ يقولون أن الطرق سالكة.

- نعم هذا شيء جيد.

- لا ليس جيدًا، إنه أمر في غاية السوء بالنسبة لي؛ فسيارتي مغمورة بالثلج والمحرك لا يعمل، وزوجي ليس قريبًا مني، ولا أجد من يساعدني. ثم أخذت بالبكاء – وأنا أعرف أنه لا يحتمل بكائي.

- وما حاجتك للسيارة يا هناء في مثل هذا الوقت؟ انتظري للغد.

- أريد تشغيلها والاطمئنان عليها وحسب.

- ولكن ربما تكون المياه مجمدة وقد يسبب التشغيل ضررًا بليغًا للمحرك.

- أووووه....علاء.....ربما أحتاجها لشراء بعض الحوائج. ألا تساعدني؟ تعال أرجوك، واصطنعت البكاء مرة ثانية.

- حسنًا حسنًا..أرجوك لا تبكي، سأحاول المجيء ماشيًا على الأقدام؛ فالطرق كلها مغلقة.

- حسنًا لا تتأخر..أنتظرك.

مضى أكثر من ساعة ولم يصل بعد وأنا واقفة على ناصية الشارع أرتجف من البرد، أرقب كل آت من البعيد لعلي أحظى برؤية رجل ذي كوفية حمراء ماردًا عملاقًا يولد من رحم الضباب الكثيف.

وبلمحة رأيته، ها هو يأتي تمامًا كما توقعته، يكاد قلبي يقفز من صدري فرحًا، تمنيت أن أجري نحوه وأعانقه كما يفعل الممثلون في الأفلام، كان يتعثر في خطواته وهو يغرق في الثلج كلما انتشل قدمًا غاصت الأخرى، يسقط وينهض، اقترب مني باسم الوجه، محمرَّ الأنف، لم تفلح كوفيته الحمراء بحماية جمال وجهه وأنفه من الاحمرار. ها هو يقترب مني يمشي كملك بين حاشيته، وحاشيته كانت رموش عيوني التي أطلقت دموع الفرح ابتهاجًا لقدومه، ولم تقو قدماي على حملي وخارت قواي فلم أستطع الوقوف فارتميت على الثلج، اقترب مني مسلمًا فمددت له يدي لكي يساعدني على النهوض وأنا أضحك باكية، وكأنما هي جمرة دافئة حركت مجرى الدم ليس في يدي فحسب، بل في عروقي كلها وفي كل جسدي المتجمد، تمنيت أن تبقى يدي بيده إلى ما لا نهاية.

-ما الأمر؟ قال بعد أن طرح التحية، ثم أردف قائلًا:

-كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ ولماذا هذه الدموع ؟

-وأخيرًا أتيت يا رجل الثلج؟؟؟

ضحك ضحكة عالية ثم قال:

-ما لي أراك باكية؟ أمن أجل السيارة ؟

قلت في نفسي "ليتك تعرف أنني أبكي من فرحتي بلقياك" وبسعادة بالغة أجبته:

-لا... لا....بل من شدة البرد انسكبت دموعي.

-لا بأس أخبريني ما المشكلة إذن؟

-سيارتي.. يغمرها الثلج وأخشى أن تتجمد المياه في المبرد فينفجر!!

- حسنًا أين المفتاح؟

- ها هو.

- لو كنت مكانك لما عبثت بها، أطيعيني واتركيها للغد، فلا حاجة لك بها اليوم.

-أرجوك حاول تشغيلها.

-حسنًا ولكن يجب إزالة الثلوج المتراكمة فوقها أولًا.

التفتُّ إلى الصِبْية وهم يمرحون فناديتهم فأقبلوا مسرعين وبدأوا بإزالة الثلوج عن السيارة وهم يصنعون الكرات الثلجية ويقذفون بعضهم بعضاً بها، فانتهزت الفرصة وبدأت أفعل مثلهم أصنع الكرات الصغيرة وأقذفها عليه وهو لا يحرك ساكنًا، كان مسرورًا جدًّا ويحتمي من ضرباتي الموجعة بيديه و بكوفيته الحمراء، لا بل وساهم كل الصبية بقذفه بالثلج وهولا حول له ولا قوة.

-أخيرًا ظهرت السيارة من تحت ركام الثلوج، فتح غطاء المحرك وقال:

-نحتاج إلى قليل من الماء الساخن.

فأجبته على الفور:

-حاضر، كما أنني قد تجمدت يداي من الثلج، أحتاج إلى تسخينها.

ثم نظرت في عينيه وقلت:

-ألا تحتاج أنت أيضًا لشيء ساخن ؟

صمت ولم يجب، فقلت متابعة:

-ما رأيك بكأس من الشاي؟

- تعرفين سر ضعفي يا سيدتي فأنا لا أقاوم الشاي أبدًا...قالها مبتسمًا.

دقائق قليلة وعدت أحمل الماء الساخن وإبريق الشاي، سكبت له مع القليل من السكر، ثم قال وهو يحتسيه بتلذذ:

-سلمت يداك...أمممم....كم هو لذيذ.

- في الحقيقة أنا لست ميكانيكيًّا، لكن من مشاهدتي للمحرك فإن الأمر على ما يرام ولا توجد أية مشكلة، فالمياه غير متجمدة وزيادة في الحيطة سأسكب عليها هذا الماء الساخن ونرى.

في حقيقة الأمر أنا لم تكن تهمني السيارة بقدر ما يهمني رؤيته، وها قد نلت مرادي ولا يعنيني موضوع السيارة كثيرًا، فالأمر سيان عندي عمِلَتْ أم لم تعْمَلْ، وبكل الأحوال لن أحركها من مكانها اليوم.

جلس في مقعدي خلف عجلة القيادة ومن غير أن أشعر وجدت نفسي أجلس إلى جانبه وقلت بفرح واضح:

- هيا.....لننطلق...

- التفت نحوي وقال متعجبًا:

- ننطلق؟؟! إلى أين؟

- - لا يهم.. إلى أي مكان....هيّا.

تعالت الضحكات وتبادلنا النظرات ثم قال:

-دعينا نرى السيارة أولًا هل تعمل أم لا.

وأدار المفتاح بعناية فهمهمت السيارة وتبسّمْتُ له.... قال:

-واو سيارة رائعة خجولة تمامًا كصاحبتها.

- شكرته واعتذرت له عما سببته من إزعاج.

في الحقيقة كنت أتوقع مجيئك للّعب معنا في الثلج. ما الذي منعك يا ترى ؟ أم تراك نسيتنا؟

أطرق مليًّا ثم رمقني بنظرة حادة كادت تخترق فؤادي، فتداركت الأمر وقلت:

-لا بد أنك كنت مشغولًا مع عائلتك. أليس كذلك؟ ثم أين هم أبناؤك؟ ليتك أحضرتهم معك، كانوا سيشعرون بالسعا دة حتماً.

لم يجبني بكلمة، ودَّعني ملوحاً بيديه وقال:

- شكرًا على الشاي.

تبعته بناظري وأنا ألوح له بكلتا يدي وقلبي يقول له قبْل لساني "رافقتك السلامة، بحفظ الله يا رجل الثلج".

في الصيف ..

انقضى فصل الشتاء ثم تبعه فصل الربيع لم تحمل الأيام أي جديد بالنسبة لي، كان اتصالي به نادرًا وهو كذلك، أصاب علاقتنا بعض الفتور، كنت أنا السبب؛ فقد وجدت نفسي أسبح في فلكه حتى دخلت في طبقة انعدام الوزن، وتوصلت لقناعة تامة أن لا جدوى من هذه العلاقة فقررت الابتعاد عنه تدريجيًّا، وأن أهتم ببيتي وعائلتي، هو أيضًا كان مقلًّا في البحث عني وكانت لديه مشاغله الكثيرة، وزيادة في الحرص مني على أن أضع حدًّا لهذه العلاقة قمت بتغيير رقم هاتفي.

مر فصل الصيف ثقيلًا علي، حيث انقطعت عن الاتصال بالعالم الخارجي وأغلقت الأبواب أمام كل الأصدقاء، فلا يكاد يمر يوم دون معارك ولا يمر يوم دون أن أبكي، حتى أدائي الوظيفي تأثر، فكثرت أخطائي وأخذ مديري يلومني، بل وملّني الزملاء لكثرة شرودي وبكائي، وذلك بسبب المشاكل بيني وبين زوجي.

كان يعود إلى البيت مخمورًا منهوك القوى، يأكل وينام ولم يدرك أن الأولاد قد كبروا وأن لهم احتياجاً لوجوده بجانبهم، لم يكترث، لم يعرني أي انتباه.

كنت أحسد جارتي أم ياسر؛ فهي تربي أطفالها والأب مغترب يعمل في دول الخليج، يأتي لزيارتهم مرتين أو أكثر في السنة، لكنهم سعداء به مسرورون لرؤيته لا ينقطع عن الاتصال بهم وإرشادهم والوقوف بجانبهم لحل مشاكلهم وهم في سن المراهقة، يرونه أكثر مما يرى أبنائي أباهم الحاضر الغائب.

هي سناء وحدها من كانت تزورني وتشد من أزري وهي من كانت تزودني بأخبار علاء، وعلى ما يبدو أنها كانت تزوده أيضًا بأخباري.عرفت منها أنه يعاني الأمرين من ابتعاد ابنته، كان يترك المنزل ويذهب إلى بيت صديقه الأعزب أحمد يبيت عنده عدة أيام دون أن يشعر أحد به، قليلًا ما يتحدث عن مشاكله أمام الناس محافظًا على كرامته ولازمًا لحدوده، لم تُغْرِهِ الفاتنات واللواتي حاولن استغلال ظروفه، يصدهن بلطف وكياسة، حَظِيَ بمحبة كل من حوله واحترامهم إلا الحكومة فهو على عداء دائم معها.

******

اليوم زوجي سافر إلى أفغانستان بحجة الجهاد لكنه في الحقيقة كان يلهث وراء الثروة وتجارة الممنوعات، وتركنا نصارع تبعات الحياة وحدنا لا يلتفت إلينا أحد من أهله، لولا والدي الذي كان كل شيء بالنسبة لي ولأبنائي.

ومرة أخرى عاد فصل الشتاء ثقيلًا مملًا، لم تعد له تلك البهجة، ولم يعد يعنيني تساقط الثلوج. ويأتي العام الجديد وأنا مثقلة بهموم البيت والأولاد، وزوجي أدار ظهره لنا ولم يعد يعنيه أمرنا على الإطلاق.

الجريدة كانت هي ونيسي الثاني، وكالعادة أقرأها وكأنني أبحث عن ضالة، اليوم وقعت عيناي على إعلان مفاده أن مؤتمرًا علميًّا سيقام في فندق الماريوت، ولفت انتباهي أن الأستاذ علاء من ضمن المشاركين فيه.

دون تردد اتصلت بسناء التي أكدت لي صحة الخبر وقالت:

-كنت أنوي الاتصال بك ودعْوَتُكْ..هل ستأتين؟

-لا أدري...لكنني بحاجة إلى الخروج من هذا الجو الكئيب.

- إذن أنتظرك.

-سأصطحب أمي معي هل في ذلك من حرج؟

- لا لا..أبدًا فالدعوة عامة...ثم إنني سأكون باستقبالكما.

لم يستطع إخفاء دهشته عندما رآنا، توجه نحونا ورحب بنا أجمل ترحيب:

-أهلا وسهلا يا مدام...أهلا وسهلا يا حاجة. قالها وهو يمد يده مصافحًا لنا، ثم أضاف أين الشيخ صالح؟ ألم يحضر معكما؟

تبادلنا أنا وأمي نظرات الاستغراب ثم سألته أمي:

- وهل تعرفه ؟

- ليس بالمعنى، لكنني كنت أصادفه في النقابة أحيانًا. توقعت مجيئه معكما؛ فقد أخبرتني سناء بقدومكما.

- لا والله يا أستاذ، الشيخ صالح لا تهمه هذه المؤتمرات.

-حسنًا تفضلا.

ثم التفتَ إلى سناء وقال لها:

احجزي لهما مقعدين في الأمام، ولا تنسي اصطحابهما إلى الغداء، ثم استأذن وتركنا مع سناء التي أجلستنا في الأمام.

أمي ما زالت تبدو شابة، وهي لماحة وذكية لاحظت اهتمام الرجل بنا فسألتني باستغراب:

-يبدو أنك تعرفينه جيدًا ؟ أليس كذلك؟

-لا لا أمي، لكن صديقتي سناء لا تفتأ تحدثني عنه؛ فهو رئيسها في الحزب.

وهنا نظرتُ إلى سناء وغمزتُ لها بطرف عيني ففهمت الأمر وقالت على الفور:

- جميل أنك حضرت يا خالة؛ لأن السيد علاء بنفسه طلب مني أن أدعو كل معارفي، وأنت أم الغالية هناء. وعندما سألني عنكما قلت له أنها زوجة الشيخ صالح فعرفه.

- ما كادت تنهي حديثها وإذا بأحمد يأتي نحونا ويسلم علينا، الآن أدركت سر ذلك المقعد الفارغ بيني وبين سناء، على الفورنهضت من مكاني و جلست به وأفسحت المجال له للجلوس فأصبحنا أربعة، لم يخف على أحد من الحضور أن العلاقة بينهما حميمية بل وحميمية جدًّا، قالت بعد أن عرّفتنا عليه:

- هذا الأستاذ أحمد..عريس المستقبل.

- ألف مبروك يا ابنتي " قالت أمي.

- قلت والدهشة تملأ كياني:

- ألف مبروك.. وهل كتبتم الكتاب؟

- لا ليس بعد، وهل أكتب كتابي دون حضورك يا هناء؟

قطع حديثنا تصفيق هادئ، عندما صعد علاء إلى المنصة ليعلن عن بدء الفعاليات، ألقى كلمة موجزة. لم ينفك من النظر في عيني طوال الجلسة وكأنه يعاتبني. وما إن انتهت الجلسة حتى صعد إلى المنصة وقال:

أيها السادة الحضور أنتم مدعوون لتناول طعام العشاء جميعكم فأهلا وسهلا بالجميع.

رفضت أمي الذهاب إلى قاعة الطعام وأنا أيضًا لم تكن لي رغبة بذلك وقفلنا عائدتين، حتى أوقفنا صوت من الخلف.

-إلى أين يا مدام؟

-إلى البيت بالطبع فقد تأخرنا يا بني ’أجابت أمي.

-لا لا..ليس قبل تناول الطعام.

ثم أقبل إلى أمي يقودها من يدها، فمشت معه دون أدنى مقاومة وأنا أتبعهما من الخلف كأنني طفلة صغيرة تتمسك بجلباب أمها تخشى الضياع في متاهات الدروب. كنت راضية عن تصرفه، هذه الالتفاتة منه أشعرت أمي بالحنان؛ أحسته مثل أخي، فمشت معه طائعةً مستسلمة..أما أنا فأحسست بسعادة بالغة وأنا أتبعهما. ما كدنا نصل إلى القاعة وإذ بسناء وأحمد يقابلاننا، اقتادانا إلى القاعة وانسحب علاء ليقضي بعض أعماله.

كنا أربعة أشخاص على طاولة لا تتسع إلا لأربعة، لم يرق لأمي رؤيته يجلس بعيدًا فنادته قائلة:

-تعال يا بُنيّ واجلس معنا سنضع لك هاهنا كرسيًّا.

قال:

-لا عليك يا خالة، خذوا راحتكم لا أريد أن أضيِّق عليكم..

وبعد أن جلسنا إذ بمنادٍ يقول:

-أيها الأخوة والأخوات، تفضلوا إلى طعامكم.

كان لا بد من الوقوف في الصف لاختيار ما يناسب كل شخص من أصناف الطعام من (البوفيه) التي كانت تزخر بأصناف الطعام الشهية، من المنسف والخرفان المحشية والأسماك والصلصات والفطائر، أما المقبلات والسلطات وأصناف الحلويات فحدث ولا حرج.

اقترب علاء من أمي وقال لها بلهجة حانية:

-لن أدعك تقفين في الصف، اجلسي في مكانك وسأحضر لك طعامك إلى هنا.

- سلمك الله يا أستاذ، لكنني لا أريد إزعاجك وانشغالك بي، لا عليك أنا سأتدبر أمري.

كان وسيمًا جدًّا، أنيقًا جدًّا ، مهذبًا جذاباً بل كان نجمًا ساطعًا، يرحب به ويبتسم له كل من يقابله، وقد أحبته أمي جدًّا، قالت له:

-ألا تجلس معنا يا بني؟ قال: لا...سأفسح المجال للعروسين سناء وأحمد ليجلسا معكما. قالت: وأنت أيضًا تعال سنجد لك هاهنا مكاناً..تعال...تعال.

لم يستطع مقاومة إصرار أمي فسحب كرسيًّا وجلس معنا، كان في غاية السعادة والسرور، ولكن عندما سألته أمي: أين زوجتك؟ ألم تحضر هنا معك؟

تغيرت ملامح وجهه وبدا عليه التكدر، ثم تدارك الموقف فتبسم وقال:

- إنها مسافرة، ليست هنا.

- مسافرة؟! وحدها؟!

- نعم هي عند أهلها في إيطاليا.

- آه فهمت .. إذن زوجتك أجنبية. عتبي عليكم أيها الشباب، تتركون بنات بلادكم وتتزوجون من الأجنبيات.

- والله معك حق يا خالة...إنها غلطة العمر.

- ومتى ستعود؟

- قال ضاحكًا "لا أدري.....وقد لا تعود".

كان رده كالقنبلة بالنسبة لنا جميعًا، هذا الصندوق المحكم من الأسرار، لم يستطع أحد معرفة رقمه السري إلا أمي وباستجواب بسيط فتحت قاصة أسراره ليخرج ما بقلبه من الزفرات...

لم تكتفِ أمي بل استمرت باستجوابه:

-وهل عندك أولاد ؟

-نعم..عندي ولد وبنت واحدة. وهي معها هناك.

-وأنت هنا تعيش وحدك؟

-نعم مع الأسف.

- وأين أهلك؟

-في قرية ما من شمال الأردن، في محافظة عجلون، هل تعرفينها؟

-ومن لا يعرف عجلون الجميلة؟ وهل والداك على قيد الحياة؟

-نعم أطال الله في عمرهما.

-أتمنى أن أتعرف إليهم.

- إن شاء الله.

-والآن اسمح لنا بالمغادرة فقد تأخرنا.

-مع السلامة. قالها مودعًا، وأوصلنا إلى الباب.

عدنا إلى البيت لنجد والدي ينتظرنا على أحر من الجمر:

- أين أنتما؟ لقد تأخرتما كثيرًا؟

عندما أخبرته أمي بما جرى تفاجأ وقال:

-المهندس علاء المرجاني ما غيره ؟

-وهل تعرفه؟! (سألته أمي).

-نعم...أعرفه حق المعرفة.

-أين عرفته؟!

- علاوةً على أنه شاعر فهو ذو شخصية سياسية معروفة، إلا أنني التقيته كثيرًا من خلال العمل أيضًا. وأظنني أحتفظ برقم هاتفه، سأتصل به وأدعوه لزيارتنا.

أبي يدير مصنعًا لإنتاج العبوات البلاستيكية، فهمت منه أنه وبحكم المهنة قد التقى به من خلال النقابة أو من خلال جولات تفتيشية من المهندسين على المصانع، وقد نشأت بينهما علاقة حميمية، أضف إلى ذلك أنهما كانا كثيراً ما يلتقيان في المسجد. ليس هذا فحسب بل على ما يبدو أنهما كانا على نفس الخط السياسي.

الفصل الثالث

في بيت أبي ..

لقد طال غياب زوجك يا هناء، ولا نسمع عن أخباره إلا القليل القليل، قال لي أبي:

تعالي بنيتي وعيشي معنا هنا إلى أن يعود زوجك؛ فلا يصح أن تبقي وحدك وأنت بحاجة إلى من يعينك في تربية الأولاد.

في البداية ترددت لكنني وجدت كلامه مقنعًا فوافقت.

أنا الآن أعيش في بيت أبي، لم أكتفِ بشكر أبي لعلاء بل قلت لنفسي أنه من اللائق أن أتصل به أنا أيضًا لأشكره على الحفاوة التي قابَلَنا بها، لم أعد أمتلك حرية الحديث على الهاتف كما في السابق لذلك كان لا بد من أخذ موافقة أمي التي رحبت بالفكرة. تحدثنا طويلًا واعتذرت له عما سبق من سوء معاملتي له ورجوته أن يقدر موقفي، وكان متفهمًا للغاية لا يحمل في داخله أية ضغينة لي، سألته:

-لم لم تخبرني أنك تعرف أبي؟!

-في الحقيقة، إنني لم أكن أعرف أنك ابنة الحاج عدلي راشد، ولقد سررتُ جدًّا عندما هاتفني ليشكرني. قلت: وهل ستأتي لزيارته فعلًا ؟

قال: بالتأكيد؛ فقد كان لي سبب واحد، أما الآن فلي سببان؛ الأول أن الحاج عدلي صديقي والثاني أنه والدك. قلت: ومتى سيكون ذلك إن شاء الله؟ قال: بالتأكيد سأخبرك لأنني أتمنى أن تكوني موجودة هناك. قلت: بالتأكيد سأكون أنا أيضًا بانتظارك، ولكي يطمئن قلبي لما سمعته من غياب زوجته إلى الأبد سألته ذلك السؤال الغبي: ولكن قل لي هل ستأتي برفقة زوجتك؟

أدهشه السؤال وأحسست به قد تكدر مزاجه وقال بنبرة حادة متذمرًا:

-ألم أقل لك إنها مسافرة عند أهلها في إيطاليا؟

-بلى..بلى...كان ذلك منذ مدة، وقلت لنفسي ربما تكون قد عادت.

-لا لا..لن تعود في القريب...هل ارتحتِ الآن؟

-ماذا تقصد؟

-لا شيء..أنت تفهمين ما أقصد.

لم يعجبني رده وأحسست بالإهانة، فأغلقت السماعة معتذرة بقدوم أحدهم. لكن قلبي لم يطاوعني فعاودت الاتصال به مغيرة مجرى الحديث:

-لقد كنت رائعًا في المؤتمر، بل نجمًا حقيقيًّا.

-أشكرك، بل كنت أنت النجمة الساطعة، وحضور أمك أبهجني جدًّا، الآن أصبحت صديقًا لكل العائلة.

ساد صمت بيننا، حتى إنني نسيت أن أشكره على إطرائه، قلت فجأة:

-لك معجبات كثيرات. قال ،نعم، هذا صحيح وبك ازددن واحدةً.

قلت بلهجة لا تخلو من الدلع:

-أنا لست معجبة بك، لكنني لا أخفي أنني أحسست بالغيرة.

قال وهو يضحك ضحكته المعهودة:

- حقًّا ؟هل شعرتِ بالغيرة؟ لماذا؟ ألستِ أنتِ من ابتعدت وهجرتني؟

-كان رغمًا عني يا علاء، والآن دعك من هذا و قل لي متى ستأتي؟

- حسنًا أخبريني أنت أي الأيام يناسبك؟

- الخميس؟ فما رأيك؟

-مناسب جدًّا....إلى اللقاء.

قلبت البيت رأساً على عقب وقمنا بتغيير الديكور، واكتست المناضد بحلل بيضاء جديدة. وأخرجت طقم كئوس الشاي الثمين ودلال القهوة الفاخرة مع الفناجين الجميلة استعدادًا للحدث الجميل.

ظلت أمي مشدوهةً فاغرة فاها وهي تراقبني أضع أجمل الورود في مزهريات أنيقة، ولسان حالها يقول لا بأس، عرفت ذلك عندما تبسمت وهزت رأسها إعجابًا بما صنعت.

الآن كل شيء جاهز لاستقبالك يا رجل الثلج...تعال أيها النسر المحلق في سماء الغياب، تعال أيها النورس المهاجر في بلاد الاغتراب وافرد جناحيك إلى هاهنا، فكم يتوق هذا البحر المتلاطم الأشواق لاحتوائك بين أحشائه.تعال ديمة سكوبًا وأمطر سماءَ صحرائي الظامئة لقطرات الهوى.

قلبي يكاد يقفز من صدري فرحًا وخوفًا؛ فرحًا بقدومه، وخوفًا من خلفانه، كنت مضطربة قلقة، كلما سمعت صوت هدير لسيارة تمر في الشارع قفزت إلى النافذة، الدقائق تمر بطيئة جدًّا وعقارب الساعة واقفة لا تتحرك، حتى هذا الشارع اللعين أصبح فارغًا وتوقفت به حركة السيارات" بدأت أتأفف؛ لقد تأخر كثيرًا.

لاحظت أمي تأففي وتلبكي وقلة حيلتي فسألتني:

-ما بك يا ابنتي؟ إني أراك قلقة.

وبدون تردد قلت:

-لقد تأخر..لن يأتي.

نظرت أمي إلي باستغراب وقالت:

-من؟ من هو الذي تأخر ولن يأتي؟

أدركت أنني تورطت ويجب أن أجد مخرجًا لهذه الورطة، ولم تخُنِّي بديهتي فقلت على الفور: الضيف.....قالت مستغربة: أي ضيف؟

-أفف أمي...لقد أخبرني أبي بأن ضيفًا سيأتي اليوم لزيارتنا في المساء، ألم يخبرك أم أنك تستغفلينني؟

-وما يعنيك أنت من الضيف أتى أم لم يأت؟ ومنذ متى تهتمين بمن راح وجاء؟

-آسفة أمي.

قلت ذلك وانسحبت إلى غرفتي...والقلق ما زال ينتابني. أما أبي فلا يبدو عليه القلق وكأنه متأكد من قدومه وقد أعدّ القهوة والضيافة ولبس بدلته الأنيقة وربطة عنقه الزرقاء وراح يتصفح الجريدة بهدوء.

تأخر كثيراً حتى أصابني اليأس وقررت الخلود إلى النوم ففي الفراش تجول بي أحلام اليقظة، أسرح بها في عالم غاية في الجمال، ما كدت أضع رأسي على الوسادة وإذ بجرس الباب يقرع، قفزت من سريري كالمجنونة واتجهت نحو الباب وفتحته بسرعة، لم أكد أصدق عينيَّ، إنه هو ببدلته الأنيقة، وعطره المميز، قلت مرحبة به:

-أهلا...أهلا وسهلا أستاذ علاء تفضل.

كان أبي يقف خلفي وكذلك أمي، كلنا توجهنا نحو الباب، وكلنا رحبنا به أجمل ترحيب.أما أنا فقد تركت المجاملة لوالدي وعدت مسرعة إلى غرفتي لأعدِّل من هيئتي وأجدد زينتي، ومرة ثانية ارتديت أجمل ما عندي، ولم أنس انتعال الكعب العالي.

لقد تأخرت يا أستاذ، قلقنا عليك، قالها له أبي مبتسمًا.

- أعتذر يا سيدي؛ إنه الازدحام المروري، الطرقات تغص بالسيارات، أصبحت عمان مثل القاهرة، الماشي على رجليه يصل قبل الراكب.

- نعم معك حق، اختناق الطرقات وبطء الحركة يسبب لي الصداع والضيق ويجعلني عصبي المزاج.

- لست وحدك كلنا نشعر بهذا، فلا تستغرب النزعة القتالية لدى السواقين في شوارعنا.

توجهت إلى المطبخ من فوري وأعددت أكواب العصير وعدت مسرعة حيث كانوا يجلسون، متخيلة ذلك الوسيم وقد أتى ليخطبني وأنا بصفتي العروس وجب عليّ تقديم الضيافة له كي يشاهدني، قطعت حديثهم قائلة:

-تفضل أستاذ علاء.

توجه بعينيه الجميلتين نحوي ورمقني بنظرة عميقة اخترقت فؤادي وابتسامته العريضة حملتني فوق النجوم، أحسست أنه لم يسمعني، فكررت القول، واحمرّت وجنتاي وتصبب العرق من جبيني وطأطأت رأسي خجلًا.

أدركت أمي أن هنالك شيئًا ما غير طبيعي، فلهفتي على وصوله وفتح الباب له وارتدائي أجمل ما لدي ثم تقديم العصير، أشعرها بأنني مهتمة به أكثر من اللازم، ليس من عادتي استقبال الضيوف- أقصد ضيوف أهلي- بهذه الحفاوة، بل نادرًا ما كنت أجلس معهم؛ مما أثار شكوكهما. قالت:

-أين الكيك يا هناء؟

-حاضر... سأحضره حالًا أمي.

تبعتني إلى المطبخ وقالت بلهجتها الحازمة المعهودة:

-ماذا أصابك يا بنت؟ هل جُننتِ! ولم كل هذه الأناقة والاهتمام، وكأنك تستقبلين خاطبًا، تكادين ترتمين بأحضان الرجل؟ أخشى ما أخشاه أن تكوني مغرمة به؟

بلهجة حادة وبلا خوف أجبتها:

-لا أمي لست مغرمة به، ولكن أنسيت كم عاملنا باحترام تلك الليلة؟؟ ما أردت إلا رد الجميل له ليس إلا.

-حسنًا، حاسبي على تصرفاتك وتعقلي. مفهوم؟

-مفهوم...حاضر.

-هيا أحضري الكيك.

أحضرت الكيك وجلست بمواجهته أستمع لحديثه بشهية، فتوجه نحوي وقال:

-أين الشيخ صالح؟ توقعت أن أجده هنا.

كان سؤاله مفاجئًا، طرد البسمة عن وجوهنا كلنا، وبفراسته المعهودة أدرك أن هنالك خطبًا ما، فالتزم الصمت وحاول تغيير مجرى الحديث، فقلت له:

-إنه مسافر يجاهد في أفغانستان.

تعجب من قولي وسأل بمكر:

-يجاهد أم يتاجر؟ فأنا أعرفه تاجرًا وليس مقاتلًا.

-في الحقيقة نحن لا نعرف عنه شيئًا يا بني - قال أبي.

- كيف ذلك ؟ ألا يتواصل معكم؟

-لا، لقد انقطعت أخباره منذ مدة. والأولاد وأمهم يعيشون هنا معنا كما ترى.

-لعله خير إن شاء الله.هنالك آباء لا يستحقون أبناءهم، وأمهات لا يستحققن أبناءهن.

أحسست في حديثه تلميحًا لزوجته وسرحت بأفكاري بعيدًا، لم أكن أعي ما يدور من أحاديث عن السياسة والاقتصاد وأوضاع البلد السيئة إلا عندما قالت لي أمي أين القهوة يا هناء؟ تنبهت ونهضت واقفة واتجهت إلى المطبخ.

-بدون سكر يا بنتي.

-حاضر أمي.

لم يمكث طويلًا بعد أن شرب القهوة استأذن وانصرف.

تمنيت لو أكون زوجة له.

مجمع النقابات المهنية / عمان ..

اعتصام، تظاهر واحتجاج على الممارسات الصهيونية ضد أهلنا في فلسطين، ومطالبات بإرسال المساعدات الغذائية والطبية والقرطاسية التي منعت قوات الاحتلال دخولها إلى فلسطين، وبعد مفاوضات مع الحكومة الأردنية وهيئة الأمم المتحدة، تقرر تشكيل وفد نقابي لتوصيل هذه المساعدات، كان المهندس علاء رئيسًا للوفد.

غادرت القافلة عمان متجهة إلى فلسطين وما إن وصلت هناك حتى تم اعتقال ثلاثة من أعضاء اللجنة المنظمة بتهمة النشاط ضد إسرائيل، وكان علاء واحدًا منهم.

أخضعوهم للتحقيق والتعذيب ومكثوا في سجون الاحتلال غير قليل، وبكثير من الجهود المحلية والدولية تم الإفراج عن اثنين منهم وبقي علاء في السجن، تعرض لشتى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي والإهانة، كانوا يحرمونه النوم وأحيانًا الطعام بسبب كتاباته المناهضة للصهيونية ورفضه لمعاهدة السلام مع إسرائيل، فقرر الإضراب عن الطعام، ولم يفرج عنه إلا

بعد أن أصبحت قضيته عالمية تناولتها معظم وكالات الأنباء العالمية، وتدخلت لجان حقوق الإنسان.

عاد علاء إلى الأردن بطلًا مرفوع الهامة وقد زادت كراهيته للاحتلال وأعوانه.

خلال الأشهر الثلاثة التي أمضاها في سجون الاحتلال، قلت في نفسي "علاء من أصل أردني وأنا من أصل فلسطيني، علاء يدافع عن فلسطين ويضحي من أجلها أكثر مني" قررت أن أعيد النظر في كل حساباتي وعدم البقاء متفرجة، فانضممت إلى الحزب من فوري وبدأت أقرأ الكثيرعن أفكاره. خلال هذه الفترة كنت ملمة بكل ما يجري حولي، وقد كان لي دور كبير في نشر قضية علاء وزملائه الأسرى على صفحات الكثير من الصحف المحلية والدولية.

-لم يصدق علاء ما سمعه عني، قال:

-كنت أظن سناء تبالغ وتكذب، لم أصدق أنك انتسبتِ إلى الحزب إلا عندما أكد لي أحمد ذلك. كنت رائعة حقًّا يا هناء.

إطراؤه لي رفعني فوق الغيوم. لكن فرحتي برجوعه لم تخلُ مما يعكر صفوها، فقد انهالت عليه طلبات المقابلات من الصحف ومحطات التلفزة، أحسسته منشغلًا عني، أردت منه اهتمامًا كبيرًا بحجم اهتمامه بفلسطين. أردته لي وحدي، ملكي أنا، لا يشاركني به أحد، هي غيرة الأنثى عندما تعشق لا ترى في

الوجود أجمل ولا أروع من حبيبها، تبذل الغالي والرخيص في سبيل الحفاظ عليه من شرور النساء، إلى أن أتت تلك الشقراء، مراسلة لإحدى محطات التلفزة تريد أن تجري معه لقاءً عما جرى معه، كان لقاءً عاديًّا كغيره من اللقاءات، لكن غير العادي هو أن يتفقا على اللقاء في مكان منعزل خارج جدران الحزب أو جدران الأستوديو بحجة التقاط مشاهد خارجية ودبلجتها لتصبح أشبه بالفيلم. كان اللقاء في أحد مطاعم عمان الفاخرة، والغريب في الأمر أن تلك المراسلة لم تحضر معها لا سائقًا ولا مصورين كما زعمت، بل أتت وحدها تحمل جهازًا نقالًا وبه آلة تسجيل، والأغرب من ذلك أنها قد حجزت المكان وكل لوازم الضيافة مسبقًا وكل من في المطعم كان تحت إمرتها. انتهت المقابلة التلفزيونية، لكن لقاءات المراسلة بعلاء لم تنتهِ؛ فقد واصلت التردد على الحزب وعقد اللقاءات مع العديد من الأعضاء، فلا يكاد يمر يوم دون أن يذكر شيء عن نشاطات حزبنا وعن علاء بالذات في نشراتهم الإخبارية أو برامجهم السياسية، لا بل ويعاد البث أكثر من مرة في اليوم.

في المؤتمر السنوي للحزب، كانت خولة وطاقمها التلفزيوني حاضرين، وأعيد انتخاب علاء أمينًا عامًّا للحزب، وراح يستقبل المهنئين، وقَبِلَ دعوة من خولة ظنًّا منه أنها من تنظيم المحطة، لكن لا المكان ولا الزمان يوحي بأنه لقاءُ عمل بقدر ما هو لقاءٌ عاطفيٌّ على ما يبدو.

قالت وهي تنظر في عينيه نظرةً حالمةً: قل لي يا أستاذ علاء؛ هل اكتويت بنار الحب؟

لم يكن غبيًّا ليدرك معنى نظراتها لكنه ادعى الغباء وتجاهلها، لكن سؤالها فاجأه فحار جوابًا، وفجأة وجد نفسه يقول لا.

انفرجت أسارير وجهها؛ فقد وجدت ضالتها المنشودة في العثور على حبيب خلي القلب.قالت:

فماذا تقول لو اعترفت لك إحداهن بإعجابها بك؟

-أبهذه السرعة يا سيدة خولة ؟ قال لها مستغربًا.

-نعم بهذه السرعة، ثم أنا لست سيدة بل آنسة، وأنا معتادة على الصراحة ولا أحب اللف والدوران، بصراحة أنا معجبة بك، بشخصيتك، بأفكارك وبنضالك البطولي.

-أشكرك يا آنسة، وأنا أيضًا أحيي فيك هذا الشعور والحماس وهمتك العالية.

شكرته ثم قالت أحببت أن ألتقيك، في مكان هادئ.

رد بهدوء:

- وها أنت التقيتني، ثم أضاف – مغيرًا لمجرى الحديث- فماذا عن المقابلة التلفزيونية؟ وأنا لا أرى طاقم التصوير.

-آه..المقابلة التلفزيونية سنجريها غدًا، قالت وهي تغمزه بطرف عينها.

-أسرها في نفسه وقال إن شاء الله..ثم استأذن ليخرج فخرجت معه وافترقا كل في طريقه.

عندما عرفتُ بما جرى أصابتني موجة من الجنون، ذهبت لمقر الحزب، وما إن التقيته حتى أمطرته بوابل من الكلمات القاسية لم يستطع تحملها فأغلق أذنيه بيديه وانصرف مسرعًا تاركًا مقر الحزب لي ولأصبَّ جام غضبي على الدفاتر والكتب، وبدأت أمزق كل ما يقع عليه بصري إلى أن تداركني أحمد وسناء وهدءا من ثورتي:

-بصراحة أنت مخطئة يا هناء. ما لك والرجل؟ هل هو زوجك مثلًا ؟ أم خطيبك؟ أم وعدك بشيء وأخلف وعده؟ ثم ما الذي يدريك بما جرى بينهما من حوار؟ قالت لي سناء، ثم أضاف أحمد:

-نعم لا يوجد ما يربطك به إلا هذا العمل المشترك وأنت امرأة متزوجة، فلماذا أكلتك نار الغيرة؟

ما إن سمعت كلامهما حتى خارت قواي وانهرت فاقدة الوعي، لم أفق إلا بعد مداخلات من المتواجدين وكان من بينهم أطباء تداركوا الموقف، لتخبرني سناء فيما بعد أنني كنت أردد اسمه.

بين نار الغيرة التي أمطَرْتُهُ بها وبين غياب أسرته وفراق زوجته الإيطالية، وابتعاده عن أهله الذين يسكنون في الشمال بعيدًا عنه، أصبح علاء حزينًا يشعر بالوحدة، فاقدًا للحنان، كل هذه الظروف خلقت تربة خصبة لنمو علاقة عاطفية بينه وبين تلك الفاتنة الشقراء خولة والتي استغلت ذلك فدعته للعشاء وقبل دعوتها على العشاء.

لم يكن مغرمًا أو مفتونًا بها لكنه وجد نفسه مرغمًا لمرافقتها سيما أنها كانت مصرّة كل الإصرار على الفوز به، فعلى الرغم من كل محاولات الصد والتهرب

إلا أنه لم يستطع مجابهة طوفان مشاعرها العارمة فرضخ للأمر الواقع، ومشى مع التيار.

أصبحا يخرجان معًا بين الفينة والأخرى، يجلسان في الأماكن العامة أو يتناولان الطعام في مطعم ما.

و لم تكد تخلو برامجها التلفزيونية من خبر يتعلق به، أصبح شخصية إعلامية مرموقة.كنت أتابع تلك المقابلات والألم يعتصر فؤادي وأنا أتجرع كأس الخوف من جهة والرغبة من جهه أخرى، كنت أشك في حبه لها وكان قلبي يخبرني أنه لا يحب سواي وأنه لم يجد بها الا بوقًا إعلاميًّا لنشر أفكاره والوصول إلى غاياته القومية، وكان يخالجني شعور بأنني قادرة على استعادته في أي وقت أشاء.

سناء وأحمد هما العون الوحيد لي في هذه الظروف، قاطعت الحزب ولم أشارك في الاجتماعات وكانت سناء تزوّدني بأخباره باستمرار، عرفت منها أنهما يترددان على مطعم البستان كل خميس. في بداية الأمر لم أصدق فقررت الذهاب إلى هناك لكي أرى بنفسي، كان المكان متسعًا لدرجة أنني أصبت بالحيرة، أين سأتجه؟ وأين سأجلس؟ وكيف سأراهم بين كل هذه الحشود المزدحمة؟ كل أهل عمان أتوا هناك في ذلك المساء وكأنهم عرفوا

بقدومي فأرادوا أن يشكلوا مظلة حماية لعلاء والشقراء التي برفقته كي لا تراه عيوني. جُلتُ بنظري بين المتسامرين فلم أشاهد أحداً. عندما جاء النادل لتحيتي قلت له دلني على مكان منعزل لشخصين فقط. قال تفضلي، فتبعته حتى أجلسني في مكان منعزل ذي إطلالة جميلة نظرت من النافذة فتراءت لي هضاب وجبال جنوب عمان بجمالها الأخاذ وعماراتها البيضاء المبنية من الحجر، وفي الأسفل موقف للسيارات يقف على بابه شابان يتوليان ركن السيارات بنظام...وفي الداخل كانت المناضد مزينة بالورود ومن السقف كانت تتسلل إلى مسامعي ألحان هادئة ترخي الأعصاب ولكنها لم تستطع في تلك اللحظة أن ترخي أعصابي المتوترة.

بعد هنيهة من الزمن جاء النادل ليسألني ماذا أريد؟ طلبت منه أن يتمهل؛ فأنا منتظرة قدوم أحدهم فربما لا يعجبه المكان، ابتسم ابتسامته المعهودة وانصرف تاركًا إياي في غمرة الحيرة والحزن قلت "سأتذرع بالذهاب إلى دورة المياه وأتجوّل بين الحضور لعلي ألمحهم" ولكن خطتي باءت بالفشل فلم أشاهد أحداً منهم.

عدت إلى طاولتي وناديت على النادل وطلبت منه أن يحضر لي فنجانًا من القهوة بدون سكر ريثما يحضر البقية، حاولت إطالة الوقت وفنجان القهوة أمامي لم أرتشف منه رشفة واحدة ،حتى صار باردًا ،كنت أرفعه إلى شفتي أشمه وأعيده مكانه حتى أصابني الملل فقررت المغادرة، وما إن نهضت إذ بهما يدخلان، فأدرت لهما ظهري وخبأت رأسي بين راحتيّ وأنا أختلس النظر إليهما من بين أصابعي حتى جلسا في ركن ليس عني ببعيد بحيث أراهما ولا يرياني، الآن أصبح لفنجان القهوة البارد لذة لا تضاهى وصرت أرتشف منه حتى أنهيته.

كانت الفتاه تتكلم وتتكلم وهو مشبك أصابع يديه جاعلًا إياهما متكأً لذقنه ينظر إليها وهي تثرثر ولا يحرك ساكنًا، وقف النادل مصغيًا لطلباتها الكثيرة ثم هز رأسه مبتسمًا كعادته وانصرف ليعود ومعه النرجيلة وكأسان من العصير، علاء لا يحب إلا الشاي، فكيف أقنعته هذه الأفعى أن يغير عاداته؟! إنه في غاية السعادة معها يتبادلان الضحك والنفث في النرجيلة. لم أستطع تحمل الموقف وانهالت الدموع من عيني، نهضت متثاقلة واتجهت إلى الصندوق أو "الكاشير" كما يسمونه ودفعت له ثمن القهوة وأشرت له عليهما وقلت هؤلاء ضيفي كم حسابهما؟ قال لا أدري يا سيدتي، ثم أشار إلى النادل

بيده فحضر وسأله عن حساب تلك الطاولة فقال لم يتضح بعد، فقلت: هذه عشرون دينارًا فإن كان الحساب أكثر فخذه من الفتاة، وإن كان أقل فالباقي من أجلك - عشرون ديناراً مبلغٌ ليس سهلًا إذا علمت أن فنجان القهوة بنصف دينار والنرقيلة بدينار والعشاء مهما كان باذخًا لا يتجاوز العشرة دنانير- وضعتها أمامه وانصرفت مكسورة الخاطر لا أدري ماذا أفعل.

عندما سأله علاء من الذي دفع الحساب، قال له النادل:

- سيدة شابة لم تفصح عن هويتها.

تبسم وقال:صفها لي، فوصفني له النادل بدقة متناهية، حك ذقنه ثم قال للنادل: أنت رجل محظوظ، واليوم هو يوم سعدك على ما يبدو، خذ هذه النقود بدل الحساب، فإن عادت تلك الشابة فأعد لها نقودها، وإن لم تعد فهي لك حلال زلال.

هكذا إذن؟ لقد عرف بوجودي معهم وأنني شاهدتهم ولم يحرك ساكنًا.. وعليه فقد اتخذتُ قرارًا بالابتعاد عنه وأن أنساه وأخرج من حياته إلى الأبد.

مر زمن طويل بين زيارة علاء لنا وبين ما جرى بيننا، لم أكن أعرف أنه على تواصل دائم مع أبي، وأن بينهما لقاءات عمل، إلا عندما قال أبي مخاطبًا أمي عندما سألتني عن علاء وسناء وأحمد وأخبار الحزب؛ قال:

-أمر ذلك الشاب محير، كان يتلهف لزيارتنا في السابق، واليوم كلما دعوته أحسسته يتذرع بأسباب وحجج واهية وكأنه يتهرب مني، مع أنني لم أقصر معه بشيء.

-أعذره يا أبا محمد فلعل غياب زوجته وابنته يجعله محرجًا من التردد علينا. قالت أمي.

-ربما، ولكن الأمر الآخر المحير أنه لم يعد مهتمًّا بالسؤال عن هناء وأولادها كما في السابق.

- أها. لعله يراها في الحزب ويعرف عن أخبارها كل شيء.

لم يرق لي الحديث ونهضت أريد مغادرة المكان لتسألني أمي:

هل حصل بينكما خلاف ما أنت وعلاء في الحزب؟

-بالطبع لا أمي. ولكن لم تسألينني هذا السؤال؟

-لا شيء، إلا أنني أراك منقطعة عن الحزب ولم تعودي تذكرينه كالسابق.

قلت: لديه مشاغله الكثيرة، ولم يعد يهتم بشيء غير السياسة.

طلاق ..

-أرجوك أمي، إن ما يقلقني هو غياب زوجي وقلة أخباره، وهذا ما يجعلني دائمة التفكير، وأمر علاء لم يعد يهمني.

-نعم نعم، قال أبي: لقد طال غيابه، ولا نكاد نسمع عن أخباره إلا اليسير، لا بد لي من محادثة أخي أبي صالح في هذا الموضوع.

- نعم يا حاج، كنت سأقول لك ذلك من قبل وها أنت تسبقني.قالت أمي.

قلت:

-الأولاد كبروا وقد بدأوا يضايقونني بالسؤال عن أبيهم، ولماذا هجرنا ولم يكترث بنا؟ وتولّد لديهم نفور وكراهية له لدرجة أنهم لا يريدون التحدث عنه أمام زملائهم، وكانوا إذا سألوهم أين هو يقولون إنه استشهد في أفغانستان.

في اليوم التالي، تكلم والدي مع أخيه أبي صالح، كان متعاطفًا معي ومع الأولاد في بداية الأمر، لكنه تغيرت ملامح وجهه وبدأ يتكلم بكلمات الغضب مع أبي عندما قال له:

يا أخي مرَّ زمنٌ طويلٌ لم يتصل بهم ولم يرسل لهم مصروفًا، ولا ندري متى سيعود، وأنتم تخليتم عن أبنائه ولا يكترث لهم أحد منكم.

رد بلهجته الاستعلائية:

-إيه... وما المطلوب يا أبا محمد؟

- المطلوب الطلاق طبعًا.

- ماذا تقول يا رجل ؟ الطلاق؟.....مستحيل، هذا لن يحصل أبدًا وأنا على قيد الحياة.

- اسمع يا أخي سننتظر ستة أشهر أخرى، فإن لم يعد أو يتصل بنا، نكون في حل من أمره.

غادر أبي منزل عمي أبي صالح وكلمات الشتائم تتبعه حتى غاب عن الأنظار.

بعد ستة أشهر لم نسمع عنه أي خبر، قلت لأبي:

-أبي...أنا سأرفع قضية طلاق على زوجي بحجة طول الغياب فما رأيك؟ قال: معك حق يا ابنتي وأنا أؤيدك.

تولى القضية أخي محمد وهو محامٍ مبتدئ، ولم تطل إجراءات المحكمة حيث تمت مخاطبة وزارة الخارجية للاستفسار عن المهندس صالح ولم تفلح جهودهم بإثبات أنه ما زال على قيد الحياة أم لا.

وتم لي الطلاق. كنت سعيدة بالتحرر حزينة من أجل أبنائي، مكسوفة من أصدقائي، فقررت أخذ إجازة بدون راتب والاعتكاف في المنزل لمدة ستة أشهر لم ألتق منهم أحدًا، إلا سناء وأحمد فقد كانا من أصدق الناس وقوفًا بجانبي.

لم أخبر أحدًا بطلاقي ولا حتى سناء، أبقيت الأمر طي الكتمان بيني وبين جدران بيت أبي، لا أدري ما الذي جرى بينه وبين أبي لكن علاء تغير فجأة وأصبح لا يتوانى عن الاتصال بوالدي والاطمئنان عليه وعلى الأولاد، بل أصبح يتردد على أبي باستمرار يسامره ويلعب معه الزهر والشطرنج، وأصبح على علاقة طيبة مع خالد وفرح يغمرهما بحنان لا يوصف، ودائمًا يجلب لهما الهدايا وأحيانًا يراجع لهما بعض الدروس في مادة الرياضيات التي كان يتقنها ويحبها جدًّا، وقد تعلقا به كثيرًا وأحباه، بينما كنت أجلس في غرفتي لا أكلمه ولا يكلمني أو أخرج بمجرد وصوله تاركة البيت بمن فيه حتى يغادر.

أثارت زيارات علاء لأبي شكوك أبناء عمي فأصبحوا يشكون أنني طلبت الطلاق من أجل الزواج به، فاتجه عمي إلى بيت أخيه أبي السعيد وقال له كلامًا أثار جنونه ملصقًا بي من التهم ما لا يعلمه إلا الله، فأجمعوا جمعهم وأثاروا الغيرة والحماس لدى فتيانهم وشحنوهم ضد علاء وتربصوا له ذات

مساء وهو خارج من منزلنا وما إن أراد أن يركب سيارته حتى انهالوا عليه بالضرب المبرح، ولم يأبهوا لنداءاته وصراخه حتى تركوه كومة هامدة لم ينقذه إلا فتية من سكان الحي، بينما هرع أبي وأخي محمد لنجدته.

الكل ظن الفاعل هم رجال الحكومة، أو بلطجية أحزاب معادية، أما أن يكون أبناء عمي هم من فعلوها، فلم نكن نعرف لولا أن ابني خالد كان قد رآهم فعرفهم، التزم الصمت في البداية خوفًا منهم، لكنه خرج عن صمته عندما حضرت الشرطة وبدأت بالتحقيق.

-تم نقل علاء الى المشفى لتلقي العلاج، لم يطلع النهار وإذ بمئات الشبان يحتلون المشفى ملثمين مسلحين بالعصي والهراوات يتطاير الشرر من عيونهم يطالبون الحكومة بتسليمهم الفاعل وإلا سيحرقون عمان بمن فيها.

-لم أكن أعرف أن لعلاء هذا الكم الكبير من الأقارب المتحمسين والمؤيدين له إلا ذلك اليوم.

ولم يكن قادراً على إعطاء إفادته إلا بعد يومين، أبقت قوات الأمن الفاعل مجهولاً ولم تخبر أهله أنهم ألقوا القبض على أبناء عمي، وهم الآن يقبعون في السجن، وقد وضعت عليهم حراسة مشددة، أحد أولئك الحراس كان من

أقرباء علاء، في اليوم التالي أسرّ لأقاربه عن الفاعل الحقيقي فأخبروا بدورهم علاء فأسرها في نفسه.

بعد يومين أجرى المحقق تحقيقًا مع علاء سأله بداية عن اسمه وعنوانه وما إلى ذلك من الأسئلة الروتينية ثم قال:

-هل تعرف من الذي اعتدى عليك؟ قال: لا.

قال ألم تشاهدهم؟ قال..لا

قال: ماذا شاهدت إذن؟

قال: شاهدت مجموعة من الشبان لم أستطع تمييز وجوههم، بسبب الظلام. قال: كم كان عددهم؟ قال: أظن أنهم كانوا أربعة أشخاص.

قال هل تتهم أحدًا؟

قال: لا.

قال: حسنًا، هل تريد تقديم شكوى بحقهم ؟

قال: لا...أنا لا أتهم أحدًا...ولا أريد أن أشتكي أحدًا.

ولأن علاء لم يشتكِ فقد أنكر أبناء عمي التهمة الموجهة إليهم، وفي اليوم التالي تم الإفراج عنهم.

قبل مغادرته للمشفى وفي فجر اليوم الرابع هالني ما رأيت، أخي محمد أيقظنا من النوم وهو يصرخ مذعورًا:

-الحقوا بيت عمي أبي صالح يحترق، قمنا مفزوعين نريد التوجه إلى بيت عمي الذي لا يبعد عنا كثيرًا، وإذ بمجموعة من الملثمين يطوقون منزلنا، وقد وقف اثنان منهم أمام الباب ومنعونا من الخروج.

قال لهم أبي:

من أنتم؟ وماذا تريدون؟ قالوا: هذا لا يخصك يا حاج، نحن نعرف أنه ليست لك علاقة بما جرى، عد إلى منزلك أنت وعائلتك الآن.

- ولكن.... بيت أخي يحترق، لا بد من نجدته، لو سمحتم دعونا نذهب.

- اسمع الكلام ولا تدعنا نتصرف معك تصرفًا آخر، فأنت لا دخل لك بالموضوع، عد إلى منزلك.

أدركت ببديهيتي ما يجري، فأمسكت بأولادي ودفعتهم إلى الداخل ثم عدت وسحبت أبي من يده وقلت هامسة في أذنه: "إنهم أهل علاء يا أبي، ألا ترى الغضب في عيونهم؟ لا تعاندهم ولننتظر حتى يغادروا".

فهم أبي الأمر وظل يردد: الله يستر، الله يستر، يارب سترك يا رب سترك.

لم يطل مكوثهم أمام بيت أبي، كانت غارة سريعة أشبه ما تكون بحرب خاطفة تمت بلمح البصر وغادروا بعد وقت ليس بالكثير، وهرعنا إلى بيت عمي وقد هالني ما رأيت، عشرات من الشبان اقتحموا منزل عمي أبي صالح ومثله أيضًا اقتحموا منزل عمي أبي السعيد، أحرقوا البوابات وأشجار الحدائق وانهالوا على أبناء أعمامي و(أعمامي أيضًا) بالضرب حتى أفقدوهم الوعي وتركوهم يخوضون في دمائهم.

كانوا ملثمين ولم يُعْرفْ منهم أحد، لم يركبوا في سيارات بل تفرقوا بين المنازل وذابوا بين المارة.

كان علاء لا يزال في المشفى، عندما سمع بما جرى ثار جنونه ولام قومه على فعلتهم، لكن ثورتهم كانت أكبر من أن يقف في وجههم. في المقابل تعالت أصوات أقاربي وتنادوا للتشاور في كيفية أخذ الثأر، وتعالت أصوات المجتمعين؛ فمنهم من يهدد بالضرب ومنهم من يهدد بالسلاح والقتل.

قال لهم أبي وهو يحاول تهدئتهم:

- على رسلكم يا جماعة، حكِّموا عقولكم، أليس بينكم رجل رشيد ؟

فقمعه عمي أبو صالح كعادته؛ لأن أبي هو أصغرهم سنًّا ولا يحق له الحديث بحضورهم، ثم اتهموه بالجبن، لكنه أصر على الحديث وقال: أنا أشجعكم وأكثركم غضباً، أخبروني ما هو هدفكم وأنا أسير إليه أولكم؟

صمت الجميع ولم يتكلم أحد، ثم تعالت أصوات الشباب:

-هدفنا هو المهندس علاء، أوليس هو من حرضهم على مهاجمتنا؟ قلت: لا ليس هو من حرضهم، وهو ليس براضٍ عما حدث، ولعلمكم إنه غاضب على ما جرى أكثر منكم، بدليل أنه لم يوجه التهمة لأحد أثناء التحقيق. ثم هل تعرفون إذا قتلتم علاء ماذا سيكون ردة فعل أقاربه؟ وهل تعرفون أنه ينتمي إلى قبيلة تفوقكم بالآف المرات عدة وعتادًا؟ أنا سأخبركم بالنتائج، أنتم تقتلون علاء، وأهل علاء لن يكتفوا بقتل واحد منكم بدلًا منه، بل ولا يكتفون بعشرين، وسيكون أخي أبو صالح وأبناؤه وأخي أبو السعيد وأبناؤه ثم أنا وولدي محمد سنكون على رأس القائمة. وكل من يسير في فلكنا سوف (يجلو) يهجّر ويغادر البلاد. أهذا هو ما تريدونه وتسعون إلى خراب بيوتكم بأيديكم؟؟

صمت الجميع مذهولين لما سمعوا، ثم قال عمي أبو صالح متهكمًا:

-وماذا ترى أيها الحكيم؟ وهل نسكت على حقنا ونصبح أضحوكة بين القبائل؟

- لا لن نسكت ولكن نسعى لأخذ حقنا بالقانون ثم نحكم بيننا العقلاء ويأخذ كل واحد حقه.

.وتعالت الأصوات بين مؤيد ومعارض وانفض الجمع دون اتخاذ أي قرار.

منذ ذلك اليوم أصبح أبي هو حكيم العائلة وصار يستشيره الكبير قبل الصغير، وتولى القيادة بحكمة وتعقل، فلا تكاد تحصل قضية بين القبائل إلا كان أبي من أصحاب الربط والحل فيها.

تولى أبي رفع قضية على الفاعلين ووجهت التهمة إلى عائلة المرجاني، لكن من منهم الفاعل؟ وحيث لا يوجد شخص بعينه فقد سجلت القضية ضد مجهول.

وحصلت القطيعة بين العائلتين، وتبادلوا التهديد والوعيد، ودون علم أحد توجه أبي إلى محافظ العاصمة سرًّا ودون أن يعرف أحد وطلب مقابلته.

قال له: إن لم تتدخل الحكومة بين القبيلتين فسيحصل ما لا تحمد عقباه، وعندها سنحملك أنت بالذات المسئولية، رد عليه المحافظ قائلا:هل أفهم أنك أتيتني ساعيًا للصلح ؟ قال: نعم، لكنني لا أريد أن يعرف أحد بما جرى

بيني وبينك الآن، وما عليك إلا أن تطلب وجوه وأعيان القبيلتين وتأمرهم بالصلح، وستراني أكثرهم تعنتًا وتشددًا، ولكن ذلك سيزيدك إصرارًا حتى لو لزم الأمر إلى التلميح باستخدام القوة. قال حسنًا، وهل تضمن موافقة الطرف الآخر؟ قال سأحاول الوصول إلى أحد زعمائهم لعلي أقنعه بوجهة نظري.

ثم انصرف وطلب علاء يحدثه على الهاتف بالأمر، واتفق الاثنان على الصلح، وعلى أن يكون هذا الأمر سرًّا بينهما.

ولم يمض زمن طويل حتى اجتمع نفر كثير من وجهاء القبيلتين في مبنى المحافظة، وتعنَّت الفريقان وباءت خطة أبي وعلاء بالفشل الذريع، ولم يستطيعا كبح جماح المندفعين نحو العنف، وباتت تهديدات المحافظ بلا جدوى، وانفض الجمع وهم أكثرعداوة من ذي قبل.

خرج علاء من المشفى وعاد يمارس أعماله كالمعتاد، وأحرقت نار الثأر كل ما بيننا من الحقول المزهرة...وخلا الجو لخولة.

مر زمن طويل اندملت به جراح علاء وهدأت روح الرغبة في الانتقام لدى عائلتي، واستغل أبي هذه الظروف واتصل بالعديد من وجهاء العشائر وأهل النخوة من أبناء القبائل الأخرى، تنادوا فيما بينهم لرأب الصدع بين القبيلتين

المتنازعتين، وتم اختيار منزل الشيخ رضوان وهو من شيوخ جرش الذين يحسب لهم ألف حساب- كونها منطقة محايدة- لتجتمع به القبيلتان، وبوجود ممثلين عن العشائر والحكومة، ألقيت الخطب الرنانة، وتعنّت كل فريق لرأيه، وطالب كل فريق بالتعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت به، وكاد الاجتماع أن يفشل فشلاً ذريعًا ويتحول إلى ساحة قتال لولا حكمة ودهاء الشيخ رضوان الذي تصدى لهم وراح يلقي بهم خطبة مهدئة، وقال: ليخبرني كال طرف بماذا يريد وأنا سداد، ودق على صدره، وتوجه بالسؤال إلى والدعلاء وسأله عما يريد، فقال: إنه لا يريد شيئًا، وقد تنازل عن حقه، فصفق له الجميع وشكروه على مبادرته ومد يده للصلح، ثم توجه الشيخ رضوان بنفس السؤال إلى أبي فرد بنفس الرد ودوت في القاعة هتافات الثناء والتصفيق، وقام والدي وعانق والد علاء وتم الصلح وتعانق الفرقاء وقد ذهبت الضغائن من أنفسهم.

لكن هل يا ترى ذهبت الضغينة من نفس علاء تجاهي؟ أتراه يكرهني ولم يعد يطيق سماع اسمي حتى؟ فمنذ ذلك اليوم الذي ذهبت به إلى مقر الحزب، تجاهلته ورمقته بنظرات لا تخلو من العتاب، ولم أمنحه الفرصة للدفاع عن نفسه، قاطعته قائلة: اذهب إليها، لم يعد لك في قلبي ذرة واحدة

من الحب والاحترام، منذ ذلك اليوم انقطعت عن الحزب ولم تعد تهمني أخباره.

لم يمض زمن طويل حتى تعرض علاء لمحاولة اغتيال بينما كان يخرج من مقر الحزب في ساعة متأخرة من الليل، وتم نقله إلى المشفى، ولولا حكمة الله لحصلت الفاجعة بين القبيلتين؛ حيث كانت كل أصابع الاتهام تشير إلى قبيلتنا على أنها عملية ثأر على ما جرى بين القبيلتين.. وتم القبض على الفاعلين وهم من القتلة الإسرائيليين وأودعوا السجن وقد اعترفوا بفعلتهم.

يومها قامت الدنيا وما قعدت، اجتاحت عمان ومدن المملكة كلها مظاهرات عارمة شاركت بها كل القبائل والأطياف السياسية، وأحاطوا بالسفارة الإسرائيلية وتوجه أرتال من الشباب الغاضب إلى المشفى للاطمئنان على حالته الصحية حيث كان في غيبوبة.

ما جرى جعلني أعيد كل حساباتي معه، قررت زيارته في المشفى بعد أن تحسنت حالته واستعاد وعيه.

كنت خائفة ألا يستقبلني، فكرت بأخذ رأي أحمد وسناء لكنني لم أفعل، كنت راغبة بأن يكون الأمر سريًّا ولا أحب أن يتسرب الأمر إلى عائلتي فيحصل ما لا تحمد عقباه.

في ساعة متأخرة من الليل اشتريت له هدية مع باقة من الزهور التي كان يحبها ولطالما أهداني إياها، تسللت خلسة بين ردهات المشفى، كان العديد من أقاربه ملازمين له، وعلى باب غرفته يقف اثنان من الحراس" اطمأن قلبي فهو في أمان إذن.لكن أيعقل أن أصل إلى هنا دون أن أراه وأطمئن عليه ؟ يا إلهي كيف سأدخل إلى هناك؟ يا رب السماء أعِنِّيْ" توجهتُ إلى باب الغرفة، كان يقف على بابها رجل ضخم المنكبين ذو شاربٍ أسود كثيف عيناه تقذفان بالشرر، يرتدي بدلة عسكرية وعلى رأسه خوذة حربية وهو مدجج بالسلاح، عندما شاهدني أقترب نحوه أخذ وضعية الاستعداد ونهرني: إلى أين يا أخت ؟ قلت متلعثمة: هل هذه غرفة الأستاذ علاء؟ قال نعم، قلت: هل تسمح لي بزيارته لبضع دقائق ؟؟ قال: ممنوع يا سيدتي. حاولت إقناعه بشتى الوسائل ورجوته حتى مللت الرجاء، وعلى العكس مما يبدو عليه من الغلظة والشكيمة إلا أنه عاملني بمنتهى اللطف فقال:

-أرجوك يا سيدتي أنت تعرضين مهنتي ومستقبلي للخطر إن سمحت لك بالدخول، فهل يرضيك ذلك؟ قلت:لا لا يرضيني ذلك.ثم عدت أدراجي أشعر بالخيبة ينساب الدمع على خديّ، لمحتني إحدى الممرضات التي شاهدت الموقف فتقدمت نحوي وسألتي:

- مرحبًا... أنا الممرضة سهير.. هلا أخبرتني لم كل هذه الدموع ؟ ولمن هذه الورود؟

قلت لها وأنا أرفع بصري الحزين إليها:

-للمهندس علاء مرجان.

-آها...ذلك الشاعر الذي تعرض للاغتيال؟

-نعم.

- ولكن أنت تعرفين أن زيارته ممنوعة إلا في أوقات محددة.

-أعرف ذلك ولكن.....لا يهم سيدتي سأغادر وأمري إلى الله.

-مهلا.. مهلا.ألا تستطيعين القدوم غدًا صباحًا وقت الزيارة؟

-هززت رأسي نافية...لا..لا..لا أستطيع.

ثم تركتها واقفة وهممت بالمغادرة، وإذ بها تمسك بي من يدي وتصطحبني إلى مكتبها وسألتني:

-أنت بالتأكيد وراءك قصة....!هيا أخبريني بها وأنا سأساعدك.

قلت لها وهل تحفظين السر؟ قالت نعم، قلت:حسنًا.اسمعي....

لم تستطع الممرضة أن تحبس دموعها وخلعت معطفها وأمرتني بارتدائه وقالت:

-هيا اتبعيني يا دكتورة هناء.

-دكتورة؟

-نعم أنت اليوم دكتورة، وليوم واحد فقط، وستقومين بالكشف على علاء، ولكن عليك إتقان الدور كي لا ينفضح السر.

لبست معطف الطبيب ووضعت السماعة على عنقي وكمامة على أنفي وتوجهت معها إلى غرفة علاء تساورني كل أنواع الوساوس والظنون "يا ترى كيف ستكون ردة فعله؟ وهل سيغضب؟ وإذا غضب هل سيلحق الأذى بهذه المخلوقة التي لا ذنب لها؟ يا إلهي كيف سينظر إلي وقد أصبح لديه صديقة أو حبيبة غيري؟ هل أنسحب؟ نعم الانسحاب أفضل" قبل خطوات من الوصول إلى غرفته قلت للممرضة:

-أرجوك لنعد، لا أريد الدخول، أنا متوترة جدًّا، خذي أنت هذه الورود وأعطيها له نيابة عني وأخبريه أنها مني.

همزتني بلسعة من أصابعها وبادرت الحارس بالسلام قائلة:

-هذه الدكتورة هناء تريد الكشف على المريض.

أفسحَ لنا المجال ودخلنا، كان نائمًا، أردت ألا أوقظه رحمة به، لكن الممرضة أيقظته وبادلته التحية وهو مغمضٌ عينيه و شبه نائم قالت له:

-الدكتورة هناء تريد الاطمئنان عليك.

تبسم بسمة عريضة فُرِجتْ بها أساريره ثم قال:

-وهل عندكم طبيبة اسمها هناء؟

-نعم يا سيدي.

-ولماذا أنت مستغرب؟

-لم أسمع بذلك من قبل.

-نعم لقد تم تعيينها هنا هذا اليوم.

تنهد تنهيدة كبيرة ثم قال:

-واسمها هناء؟

-نعم... الدكتورة هناء.

قال وهو مغمض عينيه:

-هل تعلمين يا آنسة سهيرأن هذا الاسم من أحب الأسماء إلى قلبي؟

ما إن سمعته يقول ذلك حتى تبدد ما بي من خوف وشعرت بسعادة بالغة، التفتت إليّ سهير وقد غمزت لي بطرف عينها ثم سألته؟

-ولماذا ؟ هل زوجتك اسمها هناء؟

-لا، بل من أحببتها اسمها هناء، وهي في غاية الجمال والرقة، ساعديني للنهوض لأرى طبيبتكم هل تشبهها أم لا.

عندها تقدمت إليه وأمسكت به وقلت له افتح عينيك لتراني أأشبهها أم لا؟

-ما إن سمع صوتي حتى نهض مذعورًا وكأنه لا يشتكي من شيء ومد يديه لمعانقتي، ترددت ولم أقترب منه، أدركت سهير خجلي فغادرت المكان تاركة إيانا وحيدين،عانقته وبكيت طويلًا على كتفيه واحتضنته بحنان ونامت يدي الصغيرة كالعصفور بين يديه، قلت له:

-أتيتك بهدية، فهل تقبلها مني؟

تبسم وقال:وما هي؟

-هذا الهاتف النقال، ولكن على شرط ألا تكلم به أحدًا غيري.اتفقنا؟ هز رأسه موافقًا، وقال: اتفقنا.

ناولته إياه وقلت: ما عليك إلا اختيار شريحة.

- لم يخفِ إعجابه وشكرني كثيرًا.

عندما نهضت أعطاني مغلفًا وقال: وهذه هديتي لك افتحيها عندما تكونين في البيت.

إنها قصيدة من أجمل ما كتب علاء:

دعيني أزورك عند المســــــاء وعند الصباح إذا ما أطـــل
فطيفك يكمن بين السطـــــور أتاني على غفلةٍ وارتحـــــل
يذكرني فيك نجم السمـــــــاء وبدر الضياء إذا ما أفــــل
وتُرسمُ في مهجتي صـــــــورة وطيفٌ بليلٍ أتى وانتقــــل
إذا الشمس غابت عددت النجوم أساهرها فاحتواها الملـــل
وفصل الربيع وفصل الخريـــف وفصل الثلوج إذا ما هطــل
تذكرني فيكِ تلكَ الحـــــروفَ وتلكَ السطورِ لها في المُقــل
وشـــــوقاً الى كل ما تكتبيـــن على صفحاتك يغفو الوجـل
وبين الضياعِ وبين الرجــــاءِ يظلُّ الفؤادُ رفيقَ الأمــــل
أقول تصبَّرْ فما مستحيــــــلٌ مع الفجر تأتيْ لعلّ لعـــل
فيحلو الحديـــــــث إذا بيننا نظمنا القصيد وشعرالغـزل
وتجتاحني باسمات الشّفــــاهِ تحررني من قيود الخجــل
وتحملني فوق تلك الغيــــوم نسائمُ عِطركِ برداً وطـــل
دعيني أكحّل منكِ العيـــــونَ وأُغرقُها في جحيمِ القُبــــل
فبالقرب منك يزيــــد الحنينُ وفي البعد عنك تزيد العـلل
فرفقًا بعبـــد صريــــع الهوى للقياك صلَّى الضُّحى وابتهـل

(من ديوان زهور لا تذبل)

عدت إلى المنزل وأخبرت أمي بأنني قد قمت بزيارة علاء في المشفى، ولكن لم أخبرها أنني ذهبت بمفردي بل مع أعضاء الحزب، سألتني:

كيف كان استقباله لك؟

-في غاية الروعة والأدب، علاء رجل عاقل لا يحب المتاعب، كما أنه حملني لكما سلاماً حارًّا أنت وأبي والأولاد أيضاً.

هدأت نفسي كثيرًا بعد تلك الحادثة، لكن ما أزعجني ولا يزال يثير قلقي وغيرتي هو تلك الفتاة خولة مراسلة التلفاز، إنها لا تفارقه ملاصقة له كظله، لا بد لي من التخلص منها والاستفراد بقلب علاء واستعادته لي وحدي، لم أجد وسيلة أفضل من الهاتف، اتصلت بالممرضة سهير وشكرتها جدًّا على ما عملته معي، وهي التي أخبرتني أن خولة لا تفارقه، وهي غير راضية عنها، كم مرة منعتها من الدخول، كانت تقول لي إنها ليست أكثر من صديقة بالنسبة له، سألتها:

-هل بدأ علاء باستخدام هاتفه النقال؟

-قالت ضاحكة:

لا أدري، ولكن لم لا تكلمينه على هاتف غرفته؟ انتظري لحظة سأحولك عليه.

لم تنتظر ردي وفاجأني صوته مرحبًا بي.قال:

-أود أن أشكرك على هذه الهدية الجميلة الرائعة حقًّا.

-هل أعجبك حقًّا؟

-نعم بالتأكيد، ولكنني ما زلت أجهل كيفية استخدامه، أحتاج لمن يدلني على طريقة استخدامه.

-ألا يوجد أحد ممن حولك يستطيع مساعدتك؟

-مع الأسف لا.. هذه التكنولوجيا حديثة على الجميع هنا، ولكن أخبريني هل لديك أنت أيضًا هاتفٌ مثله؟

انفجرت ضاحكة وقلت بسعادة بالغة:

-بالتأكيد، وإلا لما أهديتك إياه.

إذن لا يوجد من سيعلمني على استعماله غيرك يا هناء.

- حاضر، اسمع، عليك بتركيب الشريحة أولًا، هل لديك شريحة؟

- نعم لقد قمت بتثبيتها، وماذا بعد؟

- اضغط على الزر الأحمر وانتظر حتى يعمل الجهاز.

- قد فعلت. ماذا بعد؟

- ادخل إلى المنيو(القائمة)

- لا أستطيع هناء..لا أعرف.

- وما الحل إذن؟

- أن تأتي أنت إلى هنا وتعلميني على استعماله.

- آسفة لا أستطيع.

- لماذا؟

- لأكثر من سبب، الأول خوفًا من معرفة أهلي وأبناء عمومتي.

- قاطعني قائلًا والثاني؟

- لا أريد أن أكون عزولة بينك وبين خولة فهي لا تفارقك، ثم أخشى أن تنتقم مني وتخبر أهلي و لذلك اعذرني لن أستطيع.

- صمت هنيهة ثم قال:أعدك أن شيئًا من هذا لن يحصل، وبالنسبة لخولة فسأضع لزياراتها حدًّا من اليوم، وسأخبر الحراس بعدم السماح لها بالدخول، ثم إنني لن أمكث طويلًا هنا ربما يومًا أو يومين وأخرج إن شاء الله.

- حقًّا؟ هذا خبر مفرح!

- إذن هل ستأتين؟

- لا أدري، ولكن إذا قررت المجيء فسيكون بوقت متأخر من الليل.

- ذلك أفضل.

في المساء وبوقت متأخر استقبلتني سهير استقبالًا رائعًا، أدخلتني إلى غرفته وجَلَسَتْ معنا عنده مدة قصيرة حيث تناولنا بعضًا من الحلويات التي أحضرتها معي، ثم اعتذَرَتْ وذهبتْ لشئونها. عانقْتُهُ بحرارة ولم يكن هو أقل اشتياقًا مني، لم تفلت يدي من يده وقد تعلم كيفية استخدام الهاتف لأكتشف أنه كان يعرف من قبل ولكنه وجدها حجة لرؤيتي، أسعدني ذلك جدًّا، وعدت إلى المنزل تملأني السعادة التي لم تخف على أمي.

زواج سناء وأحمد ..

مر زمن على الصلح بين العائلتين، و لم يمر يوم دون أن يحدثني أو أحدثه، وقليلًا ما كنا نلتقي خارج نطاق الحزب أو النشاطات السياسية والنقابية، أما خولة فعندما سمعت بعودته لي جن جنونها ولم تترك وسيلة للتفريق بيننا إلا اتبعتها ،لكن موقف علاء كان حازمًا تجاهها، فقد وضع لها النقاط على الحروف ،عندما شعرت بالهزيمة طلبت الانتقال إلى دبي.وقبل مغادرتها بعثت لي برسالة تقول فيها:

(سأكون أكثر وضوحًا معك يا هناء، عندما قابلت علاء لأول مره فُتِنتُ به ورأيت فيه فارس أحلامي، قالوا لي إنه متزوج ولديه أبناء فلم يقلل ذلك من اهتمامي وافتتاني به. ولا أخفيك أنه كلما حاولت مغازلته تهرب مني وتذرع بحب زوجته، لم أصدقه؛ لأن زوجته قد هجرته وطلقها وأخذت ابنتها معها فكيف يحبها؟! عندها أدركت أن في حياته امرأة أخرى تجعله لا يكترث لإغرائي وجمالي ومركزي الاجتماعي.

طالت المدة وأنا ملتصقة به دون أن أشعر منه بنظرة حب أو شبهها، وأقسم لك يا هناء أنه لم يلمس يدي، إلى أن أخبرتني سناء بأن قلب علاء معلق بامرأة متزوجة لا يرى في الحياة غيرها ولا أجمل منها.لم أكن أعرف من هي تلك المرأة، ولم يكن يهمني أن أعرف، لكنني ازددت له احترامًا وبه حبًّا، وتمنيت أن أحل محلها. إلى أن جاء اليوم الذي اتضح به كل شيء وأدركت كنه الحقيقة ألا وهي أن علاء لن يكون إلا لهناء وهناء لن تكون إلا لعلاء، فقررت الانسحاب من حياته والألم يعتصر فؤادي).

كانت هناء تقرأ الرسالة أمام علاء وسناء وأحمد، وكان موقفًا عاطفيًّا ساد خلاله الصمت فكسرته سناء قائلةً..

- دعونا من هذا كله الآن وأخبراني هل ستحضران زفافي؟

لم يدهشنا ذلك فقد كانت قصة غرامها مع أحمد واضحة للعيان ومكشوفة للجميع، قلنا وبصوت واحد طبعًا وبالتأكيد، إن لم نحضر نحن فمن سيحضر؟

-حسنًا، أرجوكما أن تساعداني في ترتيبات الحفل، واختيار المدعوين.

-بالتأكيد سيكون حفلًا مميزًا.

وجاء ذلك اليوم وارتديت أجمل ما لدي من الثياب وذهبت إلى صالون التجميل وعملت تسريحة لشعري الطويل المنسدل على كتفي كالشلال، قالت لي الكوافيرة مداعبة: أنت يا سيدتي لا تحتاجين إلى المكياج فجمالك رباني، سبحان الذي خلق، وراحت تدق على الخشب، أسعدني إطراؤها، وشكرتها على ذوقها، وفي المساء ذهبت أنا وأمي وأبي والأولاد خالد وفرح إلى هناك.

صالة نرجسية في أحد فنادق العاصمة ذات سقفٍ عالٍ تتدلى من وسطه ثريا بحجم ضخم يحتار الرائي كيف تم تثبيتها، كانت تتلألأ ابتهاجًا بقدومنا، وعلى البست يجثم مقعدان وثيران يبدوان من الفخامة كعرش الملوك، يصعد إليهما بدرجتين من ساحة البست التي خصصت للرقص، سلطت على المكان عدة أضواء متحركة بألوان مختلفة توحي بالحركة وتزيد الراقصيد والدبيكة نشاطًا وحيوية. على الجانب الأيمن وليس بقريب من العروسين كانت فرقة موسيقية تعزف ألحاناً هادئة، في حين اصطف كل من والدي العريس والعروس على مدخل الفندق يرحبون ويصافحون الضيوف، والفتيات بزينتهن وشعورهن المرتبة بعناية كل واحدة تقتاد مدعويها إلى ركن مخصص لهم.

كانت القاعة مقسومة إلى قسمين؛ الأيمن لأهل وأصدقاء العريس، والأيسر لأهل وأصدقاء العروس.

وقد وضعت المناضد بشكل أنيق، يجلس على كل منضدة عشرة أشخاص.

كانت المنضدة مزينة بأضواء الشموع وكئوس الماء وحبيبات من ملبس على لوز بطعم الشيكولاتة.

عندما وصلنا كان علاء قد سبقنا وجلس مع أهل العريس، برزت لنا فتاة بعمر الزهر، رحبت بنا وأشارت لنا أن نتبعها متجهة بنا إلى جهة أهل العروس، وأجلستنا على طاولة لا يوجد عليها غيرنا، لم نعترض على ذلك، رحت أجول بناظري في الصالة الواسعة لعلي أشاهد علاء، لكنني لم أفلح، نهضت من مكاني واتجهت إلى والدة سناء وسألتها عنه فأشارت إلى مكان جلوسه، في التو جاءت تلك الصبية لتسألني ما بي فقلت لها مشيرة إليه: هل تشاهدين ذلك الرجل الجالس على تلك الطاولة ذا البدلة الغامقة؟ قالت نعم، قلت لها: اسمه علاء وهو من أصدقاء العروس، لطفًا اذهبي إليه وأتي به إلى تلك الطاولة، وأشرت لها إلى مكان جلوسنا. كان أجمل ما في الحفل أننا جلسنا مع علاء على طاولة واحدة، هذه أول مرة يلتقي بها مع عائلتي بعد تلك الحادثة المشئومة، وعادت المياه إلى مجاريها.

سألته أمي (السؤال الذي طالما راودني ولم أجرؤ على طرحه عليه) أين زوجتك يا أستاذ علاء؟ أما زالت في إيطاليا؟

ضحك كعادته وقال:

- أما أخبروك أنني طلقتها يا خالة أم محمد؟ تنهدتُ وقلتُ في نفسي الحمد لله، كانت عبئًا ثقيلًا على كاهلي. قالت والدهشة تملأ عينيها الحمد لله، وابنتك أين هي؟ قال: البنت ستأتي قريبًا للدراسة هنا في الجامعات الأردنية إن شاء الله.

لم أستطع إخفاء بسمتي وقلبي بدأ يرقص من الفرح "هذا ما تمنيته طوال حياتي أن يصبح لي.....ولي وحدي".

-أنا آسفة يا بني أثرت أحزانك.قال:لا بأس عليك يا خالة أم محمد، هكذا هي النتيجة عندما يكون الزواج غير متكافئ وغير مبني على أسس راسخة.

-صدقت بني، وهذا ما حصل معنا أيضًا، الله لا يسامح من ظلمها.

قال وبدهشة بالغة.

-من هي يا خالة ؟ قالت: ومن غيرها، ابنتي هناء.

عندها نهضتُ ووضعتُ يدي على فمها وقلت لها:

-أمي....أرجوك اصمتي فصمتت.

لكن علاء لم يكن غبيًّا فتدارك الموضوع ونهض متذرعًا بالسلام على أحدهم وتركنا نتفاهم.

بقيت أنا وأمي جالستين على الطاولة فسألتني:

- إن لم يخب ظني فالرجل مغرم بك، أليس كذلك؟

- قلت، لا أمي أنا لا أريد الزواج ثانية.قالت ولماذا؟ والله إن تقدم لك هذا فلن تجدي أفضل منه رجلًا في حياتك، قلت: أمي، أرجوك ليس وقته الآن، فلا ندري ربما يظهر ذلك الملعون فجأة، فماذا سنفعل وقتها؟ سنكون في غاية الحرج.

قالت: تمسكي به ولا تفلتيه من يديك.

خفضت رأسي خجلًا من أمي فبادرتني ولم تنتظر الإجابة مني:

صدقيني يا ابنتي لن تجدي أفضل من هذا الرجل زوجًا فهو يحبك ويحب أبناءك.

-أعرف ولكن هل تضمنين موافقة أبنائي يا أمي ؟ لقد كبروا، خالد دخل الجامعة وفرح ستلحق به بعد عام ، أنت لا تعرفين كم يلمحون لي بعدم الزواج من أي شخص آخر وخاصة خالد، كم مرة قالها لي إياك أن تفكري

بالزواج يا أمي. وفرح أيضًا كم استحلفتني واستقطعت مني الوعود والعهود بعدم الزواج مرة ثانية ومن أي كان.

-أها الآن فهمت...الله يكون بالعون.

كان حفل زواج سناء بداية إعادة العلاقات إلى مجراها الطبيعي بيننا وبينه، وعاد التواصل إلى مجراه الطبيعي من جديد.

أما العروسان، فبعد عودتهما من شهر العسل قمنا بدعوتهما على العشاء، قلت لأبي أن يدعو علاء أيضًا، تردد في البداية متذرعًا أنه لن يقبل دعوة كهذه، ولم يكن يعلم أنني كنت قد سبقته بدعوته وتم ترتيب كل شيء، وأمام إصراري، اتصل أبي به ودعاه، في البداية حاول الاعتذار، لكن أمام إصرار أبي لم يجد بدًّا من الموافقة.

لم أكن أكثر سعادة في حياتي من هذا اليوم وسناء ترافقني إلى المطبخ لإعداد الطعام وتحدثني عن غرامها وهيامها بعريسها وعما شاهدته في شهر العسل وكنا نتبادل الضحكات العالية، كنت مستعدة للضحك، أي شيء كان يضحكني، أحسست بدفء المكان وحميميته بوجود علاء بيننا من جديد.

على مائدة الطعام كانت أمي مهتمة بعلاء أكثر من الجميع بل وأكثر من أبي.

- كان الطعام شهيًّا جدًّا. قال علاء.

- سلمت يداك يا حاجة.(قال علاء منهيًا طعامه.)

-صحتين وهنا يا ولدي، ردت والدتي على الفور ثم تبسمت قائلة:

- الشكر لمن صنع الطعام يا ولدي، أنا لم أعمل شيئًا، سلامة أم خالد، هي من قامت بذلك كله.

-حقًّا أنت يا هناء من عملت كل هذا؟؟ سأل باستغراب.

سؤاله أغضبني فرددت عليه بحدة:

- نعم بالتأكيد أنا من صنعه، أوتحسبني لا أتقن الطهي، أم ماذا؟

-لا ليس القصد لكن هذه أصناف كثيرة ومتعددة وتحتاج إلى فريق كامل من الطهاة وإلى الكثير من الوقت فكيف فعلتِ ذلك وحدك؟

-هل نسيت أنني ست بيت وأن لي أسرة وأطفالًا؟ ثم البركة في الحاجة أم محمد هي من علمتني والفضل لها.

-حقيقة، إنه في غاية اللذة، تسلم يداك يا هناء.

-صحتين...وهنا.ثم أتبَعْتُها بضحكة فقال:

-الثانية هي ما أريد، (يقَصْدِني أنا)

لم يلحظها أحد، كان الكل منشغلًا بتكريم الآخر، وما إن انتهينا من تناول الطعام وجلسنا في غرفة الجلوس قال له أبي ببساطته المعهودة:

- مر زمن ولم أغلبك بلعبة الطاولة(النرد)، لم ينتظر منه الرد بل نادى أمي قائلًا:

-أحضري لنا الطاولة يا حاجة كي أغلب المهندس.

-حاضر، مع أني متأكدة أنه سيهزمك مثل كل مرة.ردت أمي ضاحكة.

- لا هذه المرة غير، سأهزمه، وسترين.

- ما المعنى؟ وما الذي تغير حتى تهزمه، هل دخلت دورة تدريبية مثلًا؟

- فقط أحضريها وسترين بأم عينك.

لم يرق لي انشغاله مع أبي في لعب الطاولة؛ ذلك لأنني كنت كثيرًا ما أتردد على مكان جلوسهم لأبتسم له وأغمز له بعيني، وهو كالطفل الجائع الذي يلاحق أمه بنظراته كيفما تحركت، يتبعها بعينيه، يتوسل إليها الحنان. كان يتبعني بعينيه أينما ذهبت وعندما أحدثه لا يرفع بصره عن عيني لدرجة شعوري بالخجل أحيانًا.

لم تطل اللعبة كثيرًا، فقد تهاون علاء مع أبي في اللعب ومنحه فرصة الفوز عليه، ثم تذرع بضعفه وقال:

-سأدع المكان لأحمد ليأخذ بثأري منك يا عم.

فرح أبي جدًّا لهذا الفوز وتهلل وجهه بشرًا وقال:

-مرحى مرحى..أرأيت يا أم محمد؟وسأغلبهم كلهم اليوم.

ثم جاء دور تحضير النرجيلة، دخلت إلى المطبخ وجهزت المواد المطلوبة من فحم وقصدير ومعسّل وغيره، ثم خرجت إلى الحديقة لإشعال الفحم، كان خالد هو من يقوم بهذا العمل لكنه اليوم على موعد مع أصدقائه خرجوا في نزهة، تذرعت بأنني عاجزة عن إشعال الفحم، وبالطبع لم يكن هناك من سيساعدني إلا سناء أو علاء، أتت سناء مسرعة فهمست بأذنها أنني ادعيت عدم المعرفة لكي أجد ذريعة للاختلاء به. فهمت القصد، وعادت أدراجها إلى الداخل وقالت بصريح العبارة:

- يا جماعة....من منكم سيساعدنا في إشعال الفحم..؟- وبما أن الكل منشغل- توجهت الأنظار إليه، فقام من مكانه وتبعني إلى الحديقة، تبادلنا كلمات الغزل وتلامست أيدينا بحنان، لم ننتبه إلى أن هناك من يرانا، كانت ابنتي فرح قد خرجت إلى الحديقة فجأة فشاهدت كل شيء، لم تنبس ببنت شفة بل عادت إلى الداخل وأغلقت الباب على نفسها في غرفتها وراحت تبكي.

أنتهى ذلك اليوم المليء بالسعادة بالنسبة لي، والتعاسة بالنسبة لها. وبعد أن غادر الجميع تنبهت أن فرح غائبة سألت أمي:

-أمي أين فرح ؟

-لا أدري..صحيح منذ أكثر من ساعة لم أرها، ربما تكون نائمة.

-سأذهب لأطمئن عليها.

عندما دخلت إلى غرفتها وجدتها غارقة في دموعها حزينة مكتئبة، مسحت دموعها وضممتها إلى صدري:

-ما بك يا حبيبتي ؟ لماذا هذه الدموع ؟ هل يؤلمك شيء؟

انسحبت من بين يدي ورمقتني بنظرة عاتبة وقالت:

-هل تحبينه؟ وهل ستتزوجين منه وتتركيننا؟

قلت لها باستغراب: من هو؟ قالت: علاء....هل تحبينه؟

أدركت بفطرتي أنها لم تسأل سؤالًا كهذا لو لم تكن واثقة من الإجابة، ترددت بالرد وعندما لم تسمع مني نفيًا نهضت مغاضبة وقالت:

-يعني ستتزوجين وتتركيننا أليس كذلك ؟

عدت إليها واحتضنتها من جديد وقبلتها قائلة:

-لن يحصل يا حبيبتي، أقسم لك لن أترككم أبدًا ما حييت، فأنا أحيا من أجلكم أنت وخالد ولن أضحي بكما أبدًا أبدًا، كوني واثقة بنيتي الغالية.

هدّأتْ كلماتي من ثورتها وقالت:

-أرجوك يا أمي لا تفعلي مثل ما فعل أبي.

-حاضر... لن أترككم أبدًا أبدًا، والآن هيا بنا تعالي وساعديني في أعمال الجلي وغسل الصحون.

بين حب أطفالي ووعودي لهم، وبين حبي لعلاء أصبحت كالريشة في مهب الريح، حبي لأبنائي وتعويضهم حنان أبيهم الذي فقدوه، وحاجتي لحنان علاء الذي احتواني وتملك مشاعري وأحاسيسي، وما هتف قلبي لمخلوق سواه، ماذا أفعل؟ هل أتفرغ لتربيتهم وأضع على قلبي صخرة من الألم؟ أم هل أستطيع الاستحواذ على الجهتين معًا دون أية خسائر؟ ثم ما أدراني أن علاء سيتزوجني أم لا؟ لم يطل ترددي فاتخذت قراري بالاهتمام بكليهما والانتظار لما هو آت.

في عجلون ..

على ربوة مرتفعة من جبال عجلون، منزل ريفي يجثم هادئاً في مزرعة للوزيات، تحتوي على ما لذ وطاب من الثمار كالتفاح واللوز والعنب والتين وأشياء أخرى مما تشتهر بإنتاجه هذه المنطقة، هناك كان موعدنا مع لفيف من الأصدقاء وعلى رأسهم العروسان أحمد وسناء على طعام الغداء، كان ذلك ردًّا لدعوتنا له، قال لأبي قبل أن يغادر منزلنا في تلك الليلة الجميلة:

-موعدنا يو الجمعة يا جماعة على طعام الغداء في عجلون، ولن أقبل اعتذارًا من أحد.

-حاول أبي الاعتذار لكن أمام إصراري ورغبة أمي في رؤية عجلون بجبالها وسهولها وكرومها فقد وافق.

باتت أمي وفرح تعرفان تعلقي به، أما أبي فهو ليس غبيًّا بل كان يتظاهر بالغباء وكان يعرف ويفهم سر اهتمامي بعلاء. أصبح خالد هو الوحيد الذي لا يعرف.

على بعد 60كم (كيلو مترًا) من عمان كان الطريق إلى عجلون وبالتحديد إلى بلدة عبين التي في غاية الجمال، طبيعة خلابة تسلب العقول في سحرها

واخضرار جبالها، كنا نتوقف كثيرًا لالتقاط الصور بين الأشجار والغابات والبساتين المثمرة، وما إن وصلنا وجدنا الحاج ضيف الله القائم على رعاية المكان باستقبالنا، استقبلنا استقبالاً حارًا يليق بالملوك، وقد أعد كل ما يلزم من مقاعد وفواكه وعصائر وحتى الأراقيل كانت جاهزة.

والأجمل من كل شيء منظر تلك (المواقد) الطويلة بما تحتويه من الجمر المتوهج والتي أعدت للشواء، لم يمض وقت طويل حتى جاء والدي علاء ورحبا بنا أجمل ترحيب، وكانت أمه في غاية اللطف مع أمي، حصل بينهما انسجام تام، كما حصل أيضًا انسجام تام بين الأبوين، وتبين أن والد علاء مدمن طاولة زهرأيضاً، فكانت فرصة للمبارزة بينهما.

قال أبي مخاطبًا علاء:

-من عنده هذا المكان كيف يتركه ليعيش في عمان؟

كانت الكلمة كالمرهم للجرح بالنسبة لأبي علاء، رد فورًا:

-قل له بالله عليك..كم مرة قلنا له، ولا يستمع إلا لرأيه.أنا لا أفهم سر حبه لعمان.

فرد عليهم قائلًا:

عمان يا أبي هي الأردن، فلا شوارع ولا خدمات ولا وظائف إلا هناك، وأصحاب القرار والأسفار هناك، والنوادي والقمار والأمان والخوف والولاء والخيانة والرجاء والخيبة والفساد والطهر كله هناك في عمان. كما أن عملي يا أبي، هو ما يجبرني على العيش هناك.

على الطرف الآخر كان حديث نساء، جلسنا أنا وسناء نستمع إليه، قالت أمي:

-هل لديك أبناء وبنات يا حاجة غير علاء؟

- نعم عندي أربع بنات وأربعة أولاد، لكنهم متفرقون كل واحد منهم بديرة(ببلد)، المسافر والمهاجر والذي يدرس....أسأل الله أن يوفقهم ويعيدهم لي سالمين غانمين.

-ما شاء الله، الله يحفظهم.

- الله يسلمك، وأنت يا أم محمد هل هؤلاء هم أولادك؟

-لا، ابني الكبير محمد محام يعمل في عمان، اعتذر عن المجيء لكثرة أشغاله، وهذه ابنتي هناء، أما الآخران فهما أصحاب علاء العروسان أحمد وسناء.

نظرت إلي بعين ثاقبة وقالت مخاطبة أمي:

- هل ابنتك هذه متزوجة ؟

ترددت أمي وتلعثمت بالإجابة وهي ترمقني بطرف عينها ثم قالت:

- نعم..نعم.....متزوجة.

- خسارة، ليتها كانت عزباء، وهل عندك بنات غيرها، وبجمالها؟.

- لا والله يا حاجة، ما عندي غيرها. لكن لماذا تسألين؟هل لديك من تبحثين لهم عن عرائس؟

- الصدق الصدق أقول لك..نعم. قالت، أيهم من أبنائك؟ قالت: أريدها لولدي علاء. علاء يجب أن يتزوج، الأجنبية دمرت حياته قبحها الله، والحمد لله أنه طلقها، تخيلي تلك الفاسقة متمسكة بالبنت وقد حرمتنا رؤيتها، ولكن ما بعد الضيق إلا الفرج.قريبًا ستعود لتكمل دراستها الجامعية هنا وبيننا فقد كبرت والحمد لله.

- معقول؟ ولكن لماذا طلقها؟!

- إنها لا تحترم زوجها، امرأة منحرفة، أصبحت ذات سمعة سيئة، تقضي جل وقتها في الحانات ومع صديقها الإيطالي، إنها فاسقة.

- ولكن منذ متى حصل هذا الطلاق؟

- منذ زمن

- ولماذا لم يتزوج لغاية الآن ؟

- لا أدري لكنني ما زلت أبحث له عن بنت الحلال، أريد له واحدة تليق بمقامه.

- أما وجدتِها بعد؟

- بل هن كثر كثر، لكن المشكلة بابني، فهو يرفض مقابلة أو رؤية أي فتاة.

- لعله خير، لا تتعجلي، وهذا كله قسمة ونصيب يا حاجة.

- وابنتك هذه أين زوجها؟ وهل لديها أبناء؟

- زوجها مسافر وأولادها بعمان، ولم يتمكنوا من المجيء معنا.

كانت أم علاء مهتمة بي جدًّا وكأن إحساسها دلها على حبي لابنها، كانت تدللني وتطعمني ما لذ وطاب حتى أثارت غيرة سناء فقالت ممازحة لها:

-وأنا يا خالة، أنا العروس وليست هناء، لماذا لا تدلليني وتطعمينني مثلها؟

فردت عليها ممازحة مكسوفة وقد احمرت وجنتاها من الخجل:

-أنت الله يخليلك عريسك ليدللك ويطعمك، أما هذه المسكينة فزوجها مسافر فصار لزامًا علينا تدليلها، هل اقتنعت؟

- نعم..اقتنعت.... معك حق، كلامك ذهب يا خالة.

لم يكن فرق بين عازم ومعزوم أو بين الضيف والمضيف؛ فالكل كان يشارك في الشواء والكل كان في غاية السعادة، حتى والد علاء لم يستطع إخفاء اهتمامه بي، كان يبرُّني بأشياء كثيرة، أحسست يومها أنني بين أناس أحبهم من كل قلبي وأتمنى ألاّ أعود إلى عمان وأن أبقى بينهم إلى الأبد.

تنبهنا إلى صوت علاء يقول:

-من منكم يحب أن يرافقنا أنا وأحمد في جولة بين جبال عجلون؟ سنذهب أولًا إلى برقش، وبعدها إلى القلعة..قلعة عجلون.

لم يرفع أحد يده غيري أنا وسناء، فركبنا السيارة، جلست أنا في المقعد الأمامي بجانب علاء بينما جلس أحمد وسناء في المقعد الخلفي، ما إن ابتعدنا قليلًا أحسست بيد علاء تتسلل خلسة إلى يدي فاحتضنتها وتشابكت أصابعنا ببعضها، أحسست بقشعريرة تسري في جسدي وأنني أمتلك الدنيا بأسرها.كانت تجتاحني رغبة في أن أضمه إلى صدري وأقبّله كما يفعل هذان الجالسان في المقعد الخلفي.

سرنا بين الجبال وكانت أيدينا متشابكة، وكان علاء يعمل كدليل سياحي لنا قال:

-انظري يا هناء، تلك هي قلعة عجلون تجثم على قمة ذلك الجبل الأشم متحدية الطبيعة، قلعة عجلون بناها عز الدين أسامة بأمر من صلاح الدين الأيوبي لمقارعة الصليبيين.

ثم تسلقنا عدة مرتفعات كنا نشاهد منها فلسطين الحبيبة، و لم يبق مكان جميل إلا وشاهدناه حتى غابت الشمس ثم عدنا أدراجنا إلى المزرعة.

استنكرت أم علاء ذهابي معهم وقالت:

-لم أر ابني علاء في هذه السعادة من قبل، ولكن ألا يغضب زوج ابنتك إذا عرف بأنها تخرج مع غرباء؟

صمتت أمي ثم قالت:

-هل تقصدين خروجها مع علاء مثلًا؟

-نعم.

-نحن واثقون من أخلاقه ونعرفه منذ زمن طويل، ثم مالت نحوها وهمست في أذنها "لا أخفيك يا حاجة أن ابنتي أرملة قتل زوجها في أفغانستان" ولكن إياك أن تخبري أحدًا بما سمعت.

أصيبت بالدهشة وفغرت فاها ووضعت يدها على فمها وأومأت برأسها وقالت:

-حاضر لن أخبر أحدًا.

-لا أحد حتى علاء.

-و هل هو لا يعرف أيضًا؟

-نعم، ابنتي لا تريد أن يعرف أحد خوفًا من وصول الخبر إلى أبنائها.

-ولكن إلى متى، في النهاية لا بد أن يعرفوا وسيعرف الجميع ذلك.

-نعم ولكن ليس الآن.

- وهل ستتزوج؟

-لم لا...إذا حكم النصيب الكل سيصمت ولا سبيل لرده.

لم تعلق بكلمة، ارتسمت علامات البهجة على محياها وهزت رأسها إلى الأعلى والأسفل وكأنها تضمر شيئًا وذهبت بفكرها بعيدًا، أيقظتها كلمات أمي:

- أين سرحت يا حاجة؟؟

- الصراحة أنني أحببت هذه الفتاة وأتمنى أن تكون من نصيب ابني علاء، فلو دار الكرة الأرضية كلها لما وجد أحسن وأجمل منها. ثم سألت: هل تعتقدين أنها ستوافق عليه؟

- ردت باستغراب: وهل تعتقدين أنه سيتقدم لها بالفعل؟

- لا أدري، ولكن ما رأيك أن نسألهما؟

- انها لفكرة طيبة، وإن شاء الله ربنا يوفقهم.

لم أتوقع أن أمي أخبرتها بكل هذه التفاصيل وقد كانت المفاجأة كبيرة لي.

عندما سألتني رأيي، لُجِمَ لساني ولم أعرف ما سأقول، لكن قلبي بدأ يرقص فرحًا وصرت أبتهل لربي أن يتم ذلك، طال صمتي فعادت وسألتني:

-ما رأيك يا ابنتي؟

-والله لا أعرف يا خالة، هل طلب علاء منك ذلك؟

-لا لم يطلب..ولكن إن طلب هل ستوافقين مثلًا؟

-إذن عليك أن تسأليه أولًا، لأنني سمعت أنه لا يرغب بالزواج.

- اتركي أمره لي، المهم أنت..هل ستوافقين؟

ضحكت وقلت متهربة من الإجابة:

-إن شاء الله لندع ذلك لوقته.

بعد أسبوع جاءت لزيارتنا بعمان، أوصلها علاء إلى المنزل وغادر إلى عمله، لم تضيع الوقت من فورها طلبت يدي من أمي التي لم يفاجئها ذلك، فردت عليها قائلة: الأمر متروك لها، سأناديها لتسمعي منها.

طأطأت رأسي خجلًا وتبسمت ابتسامة الرضا، قالت وهي تمد إلي ذراعيها: تعالي لأقبلك يا حبيبتي، فتقدمت نحوها وعانقتها بحرارة، ثم أطلقت زغرودة مدوية في أرجاء المنزل، جاء على أثرها خالد وفرح ليستوضحا الأمر.

لم تكتمل سعادتي بهذا الحب؛ وقف أبنائي خالد وفرح بوجهي. ما بين الرجاء والتهديد، نعم فقد هددني ابني بأنه سوف ينتحر أو يقتل علاء إذا تزوجت منه. وتفاقمت المشكلة عندما هدد علاء وطلب منه أن يبتعد عني وأنه أصبح شخصًا غير مرغوب به في العائلة منذ اللحظة.

حاول علاء أن يقنعه أنه لن يتغيرعليهم شيء، وسيظلون تحت جناح أمهم، وسيكون لهم أبًا ولكن دون جدوى، أمطره خالد بالشتائم والتهديد.

منذ ذلك اليوم لم يعد علاء لزيارتنا في المنزل ووضعني أبنائي تحت المراقبة، حتى هاتفي لم يسلم من مراقبتهم. كان يمر اليوم واليومان وأحيانًا أسبوعٌ دون أن أكلمه أو أراه؛ وذلك خوفًا عليه، فأنا أعْرَفُ الناس بابني خالد إذا هدد بشيء فهو بلا شك فاعله.

****

اليوم هو موعد توقيع معاهدة السلام مع العدو الصهيوني، خرجت مجموعات من الشباب الغاضب والرافض لسياسة الحكومة التطبيعية مع العدو الإسرائيلي وكما هي سياسة رفع الأسعار والإفراج عن المعتقلين السياسيين، وقد خرجت المظاهرات السلمية وتم اعتقال عدد من المتزعمين للحراك ومن بينهم كان علاء، لم تفلح كل جهود المحامين ولا المتظاهرين بالإفراج عنهم فمكثوا في السجن غير قليل، أسندت إليه تهمة التحريض على زعزعة الأمن وحكم عليه بالسجن لمدة سنة، خرج بعدها بالكفالة فاقدًا لوظيفته.

لم أستطع زيارته والاتصال به طوال مكوثه في السجن، عندما خرج كان يائسًا مبتئسًا؛ فقرر ترك البلاد والسفرإلى إيطاليا.

علاء يغادر عمان ..

ها هو يغادرنا مرة ثانية، يغادر هذا التراب الذي طالما أحبه وتغنى به، يغادر الأهل والعشيرة إلى حيث لا أهل ولا عشيرة، يغادر عمان التي أحبها وأحبته بصيفها وشتائها، يغادر عجلون والمزرعة بلوزها وتفاحها، بجمالها وزقزقة طيورها...ها هو يسافر تاركًا خلفه من هو سعيد لفراقه كالحكومة، ومن هو حزين كهناء. لكن ما بين الفرحة والحزن والألم، كان هناك بصيص أمل لكل من أحب علاء -وأنا منهم- بأنه ذاهب لبناء مستقبله، لم يكترث لمن قالوا إنه باع الوطن بهروبه منه، وإنه تخلى عن الحراك والمقاومة، ونسوا أنه سيكون أشد التحامًا به وهو في الغربة.

ودعته بكلمات اخترتها من إحدى قصائده:

أحن إلى لمسةٍ من يديكَ ومن شفتيكَ لذيذُ الرَّحيـــــق
وكنتُ إذا غبتَ عني أذوبُ إليكَ اشتياقاً وصدري يضيق
مشيناه شوقًا يداً بيدٍ وقِنديلُ شوقٍ أنار الطريـــــق
ومن نظرةٍ تَصْفُو في مقلتيكَ وفي بؤبؤيكَ بريقُ العقيــق
وذا القلبُ يخفقُ في جانبيَّ على مذبحيك ينامُ يفيـــــق
لأن له في هواكَ احتباسًا /على ناظريكَ رؤوفٌ شفيـــق

ولي في هواك نصيبُ الأسودِ وبيني وبينِك عهدٌ وثيـــــق
فما خاب حدسي وقلبكِ مني قريبٌ تنفّسَنِيْ في الشَّهيـق
فحبي له شاهدين هما مطارٌ فسيحٌ وفجٌ عميـــــق
صحيحٌ، أخطُّ إليك سطوراً وحسبي بها من وفي رقيــق
فمن أجل نفسي أبثُّ شعوري ولي في الرسائل ردٌ أنيــق
فمدٌ وجزرٌ،وودٌ وصـــــدٌّ وخيرٌ وشـــرٌ بنا لا يليــق

التحق بالجامعة لنيل درجة الدكتوراه، واجتمع شمله مع ابنته هناك، فكان لها خير معين في دراستها، ومرت الأعوام مسرعة على الناس بطيئة على هناء. خلال وجوده في إيطاليا، لم ينقطع عن الاتصال بي، كنا نتبادل الرسائل القصيرة كل يوم، أزوده بأخبار البلد وأحيانًا أبعث له مقاطع من أغانٍ كان يحب سماعها أو أشعارًا أعجبتني وغالبًا ما كنت أُؤكد له حبي ووفائي.

تمر الأيام مسرعة لكن على من ينتظرها فهي بطيئة، اليوم كالشهر، والشهر كالسنة في غياب علاء، مر الصيف والخريف وجاء الشتاء بثلوجه. لا أتصور ثلجًا في عمان بدون علاء، لا بد من أن يكون حاضرًا هنا ولو عبر خطوط الهاتف، أسعدني سماع صوته، قلت له: اشتقت لسماع شعرك، أما كتبت شيئًا هناك؟

-قال بلى، اسمعي:

يا من تكلّلَ بالسماحةِ مبسمـكْ   لله درُّكَ فاتناً ما أروعَـــــــكْ
رِفِقاً بِقَلْبِيْ إنّ قَلْبِيَ مُرْهَـــــفٌ   يرنو إليْكَ وهمُّهُ أن يتبـعَـــــكْ
سَأغار مِنْ صحبيْ عَليــكَ وإنّني   سأغار من نظراتهم أن تخدعَــكْ
وأغارُ إنْ مَرّ النّسِيْـــمُ مُصَافِحًا   وأغار من نور الصّباح ومخدعَـك
ومن الجواهرِإذ تعانقُ حاجبيـكَ   من الخواتمِ إن بدت في إصبعَـك
لَوْ كُنْتَ تَدْري كَمْ فِرَاقُــكَ مُؤلمٌ   أنّا قَلْبِيَ سَرَّها أن تسْمَعَــــكْ
فاتركْ لِيَ القلـــبَ الّذيْ مزقْتَهُ   والرّوحُ مُلكَ الرّوحُ فاحملها معَكْ
قد كان ظنّيَ والظنــــونُ كثيرةٌ   ألا الفؤادَ إذا تمزّق أدْمَعَـــــكْ
ورضيتُ بالهـــمّ الذي حمّلتَنيْ   فَحمَلتهُ ومُشيتُ خَلفَكَ لا معَكْ
ومشيتُ في تلكَ الدروبِ مُحــدِّثاً   للنّفسِ علّ الله أن يستودعَــكْ
هيهاتَ هيهاتَ التمنّي قـــد مضى   إلّا الأمانيَ وحدها لن تُرجِعَــــكْ

عودته من إيطاليا ..

وتمر السنون ويتقدم بنا العمر وعلاء يواصل تعليمه حتى حصل على شهادة الدكتوراه، أسعدني جدًّا سماع خبر عودته.

أنهت ابنته الثانوية بنجاح وعادت معه إلى الأردن لتكمل دراستها الجامعية في جامعة اليرموك حيث كان ابني خالد يواصل دراسته، ولتكون قريبة من أهله.

وتم تعيينه معيدًا في جامعة مؤتة، لكن لم يطل به المقام فقد وقع عقد عمل مع الإمارات العربية وسوف يغادر البلاد ثانية.

خالد ونيفين في الجامعة ..

كانت نيفين تتدفق نشاطًا وحيوية؛ فقد جمعت بين صفات أبيها وميوله القومية وبين الثقافة الأوروبية المنضبطة، فكانت تراعي العادات والتقاليد ولا تخرج عن المألوف. وكانت تتحلى بشخصية قوية جريئة غير وقحة، كلماتها موزونة لا تجرح من تحدثه، وكانت تبدو واثقة جدًّا من نفسها. وحطت رحالها في إربد.

ذات يوم خرجت نيفين مع ابنة عمتها للتنزه في شارع الجامعة وجلستا في مطعم هادئ لتناول البيتزا، وعلى الطاولة المقابلة لهما كانت عيون شاب تراقبها وقد أطال النظر إليها، شعرت به فتبسمت له وتوجهت إليه بالسؤال:

-ما بك تحملق بي هكذا؟ أتراني غريبة الهيئة مثلا ؟ قال وقد احمرت وجنتاه من الخجل...أنا آسف..لم أقصد، لكنني سأكون ممتنًّا لو تعرفت إليك. قالت وبلا تردد اسمي نيفين، فمد لها يده مصافحًا وقال: وأنا اسمي خالد، قالت تشرفنا، قال وأنا أيضًا، قالت: تفضل بالجلوس معنا إن شئت، قال...ولم لا؟... يسعدني ذلك.

كانوا لطفاء جدًّا يتحدثون عن الدراسة والدروس واتفقا على اللقاء في اليوم التالي.

كان ينتظرها على أحر من الجمر لكنه على خلاف ما كان يتوقع لم تأت وحدها بل جاءت برفقة ابنة عمتها نهيل فبادرته بابتسامتها المعهودة وبالسلام عليه ثم نهض واقفًا ومد يده مصافحًا مرحبًا بهما.

جلس الجميع على طاولة واحدة حيث قام خالد بواجب التضييف، وقد حصل انسجام كبير بينهم تناولت نهيل العصير ثم استأذنت وغادرت المكان بحجة التسوق، وبقيت نيفين جالسة معه تحدثه ويحدثها، وقبل مغادرتها أهدته كتابًا وهو عبارة عن ديوان شعري للشاعر علاء المرجاني.

ألقى نظرة على الغلاف وبمجرد أن رأى اسم علاء المرجاني وصورته حتى تجهم وجهه وتبدلت ملامحه ولم يستطع إخفاء علامات الانفعال التي بدت واضحة على وجهه، وأطاح بالكتاب جانبًا بحركة عصبية تنم عن الكراهية.

سألته: ما بك يا خالد؟ ألا تحب الشعر؟ قال: بلى، ولكنني لا أحب هذا الشاعر.

صدمتها الإجابة، لكنها لم تحفل كثيرًا بذلك، قالت لماذا؟ ألا يعجبك شعره مثلا؟ قال: لا لم أقرأ شعره أبدًا، لكن شخصه لا يعجبني. زادت دهشتها وسألته باستغراب وقد بدأ الغضب على محياها: لماذا؟ وهل تعرفه شخصيًّا؟.... هل التقيته من قبل؟ قال: نعم أعرفه عز المعرفة.قالت كيف وأين ؟ قال: لقد تشاجرت معه وأهنته إهانة كبيرة، بل وشتمته. وأنت هل تعرفينه عن قرب؟ قالت: لا، ولكن لا تنس أنني محبة للشعر، كم أتمنى أن ألتقيه، وهو كما يقولون شخصية رائعة بحق يجب أن تعيد النظر برأيك به يا خالد. قال دعك من هذا الآن فالأمر عنده سيان وما مضى لن يعود ... المهم ... أخبريني أنت ماذا ستفعلين في الإجازة؟ قالت: سأذهب إلى الكرك، وسأقضيها مع أبي هناك، لأنه سيغادرنا إلى الإمارات في تفرغ علمي لمدة سنة أو يزيد إن شاء الله.

لاحظ تبدل لهجتها وامتقاع لونها فأدرك أنه استفزها بتلك الحركة الرعناء، فقال محاولًا رتق ما تمزق، حسنًا كرمًا لك ومعزتي لك سوف أقرأ هذا الديوان بتمعن وسوف أحتفظ به شريطة أن تكتبي لي إهداء على الصفحة الأولى.

شعرت بالارتياح لتلك المجاملة وخطت بقلمها على الزاوية العليا للصفحة البيضاء التي عادة ما تكون مخصصة للإهداء، كتبت: (من نيفين إلى خالد مع التحية).

تحدثت مع والدها وأخبرته مستغربةً بأنها التقت بشاب لا يحبه وهذه أول مرة تلتقي فيها بشخص لا يحب الشاعر والسياسي علاء المرجاني، ضحك ضحكته المعهودة وقال لها: هذا أمر طبيعي يا ابنتي، فلكل شاعر محبوه ومبغضوه، وقد يكون من خصومنا السياسيين، فلا تكترثي بذلك. لم تجبه لكنها غدت مصممةً على معرفة الأسباب.

ذات نهار كان خالد يجلس على الأريكة يقرأ كتابًا، أدهشني ذلك، هذه أول مرة بحياتي أرى فيها ابني خالد يقرأ كتابًا، توجهت نحوه والسعادة تغمرني، وتسللت حتى غدوت بمقربة منه واختلست نظرة إلى عنوان الكتاب ولم أصدق نفسي، عدت مكاني ولم أكلمه بكلمة، حتى أحس بوجودي فتبسم لي وقال: ما بك مستغربة أمي؟ قلت لا شيء، فقط قل لي هل اشتريت هذا الكتاب أم استعرته؟ قال وهو يغلق صفحاته: لا أمي .. إنما تعرفت على فتاة معجبة بشعره فأهدتنيه، قلت وكيف وجدته ؟هل أعجبك شعره ؟

قال: هذه أول مرة في حياتي أتذوق الشعر أمي.قلت البركة في تلك الفتاة إذن، أخبرني عنها، قال: اسمها نيفين جميلة ومهذبة، طالبة في كلية الهندسة في سنتها الأولى. سأعرفك عليها أمي، قلت: يسعدني ذلك، أما عرفت من أين هي؟ قال هي من عجلون لكنها تسكن في إربد مع عمتها.

سرحت في أفكاري غير مصدقة لما أسمع "هل كُتِب حبُّ أبناء عجلون عليّ وعلى أولادي؟!"، قلت له وما اسم أبيها؟ قال: لا أعرف، هي لم تخبرني وأنا لم أسألها.قلت: اسألها إذن.

من السعودية ..

دون سابق إنذار يتصل أحد رجال السفارة الأردنية في السعودية بوزارة الخارجية ليخبرهم أن هناك شخصًا أردنيًّا اسمه صالح محمود قد أُلقي القبض عليه بتهمة تهريب المخدرات والسلاح من أفغانستان، وهو الآن يقبع في سجون السعودية وقد حكم عليه بالإعدام.

كان الخبر صاعقًا، بعد أن كدنا ننساه جاء من جديد ليفتح كل الجروح ويعيد أيام الألم، توجه رهط من رجال القبيلة إلى مقابلة وزير الخارجية الذي وعد بدوره أن يتدخل لتخفيف عقوبة الإعدام، وكما توجه أيضًا وفد من شيوخ ووجهاء أردنيين لمقابلة أمير المنطقة في السعودية هناك، ولكن دون جدوى فقد فشلت كل الجهود وتم تنفيذ حكم الإعدام به، وكأن أمي كانت تستطلع الغيب عندما قالت لأم علاء بأنني أرملة، لم تفلح جهود العائلة بتحسين صورته؛ فقد احتلت قضيته العناوين الرئيسية في الصحف ومحطات التلفزة، كان مصدرعار لأبنائه وبلده.

على الرغم من أنني مطلقة، لكنني لزمت الحداد إكرامًا لأبي وأعمامي وأبنائي، أما في داخلي فقد كنت أشعر بألم، وفرحة بالتخلص منه، أصبحت حرة طليقة أحس نفسي كطائر كان في قفص وفتحت له الأبواب ليحط على فنن عالٍ ويبدأ بتغريد أجمل الألحان وأشجاها.

وعاد فصل الشتاء ..

ومرة أخرى يأتي الثلج بدون رجُلِهِ المُلثَّم، لكنني قررت الخروج واللعب به وصنعتُ تمثالًا يشبهه وألبسته كوفية حمراء، ووضعت له عينين زرقاوين من الخرز وفمًا من الجزر وأنفًا من خشب، صورته بهاتفي وتصورت معه أنا ونيفين والأولاد، كلهم كانوا مسرورين لعودة ابتسامتي، لم يكن يعرف أحد كم كنت أُخفي من الألم خلف تلك الابتسامة التي سرعان ما اختفت؛ حيث تفاقم الألم على والدي فقد أصيب بداء السكر وهبوط في القلب مما اضطرني لمرافقته في المشفى، وسرعان ما انتشر خبر دخوله المشفى فانهال عليه الزوار من كل حدب وصوب، فهو عدا كونه رجل أعمال فقد كان دمث الخلق حسن المعشر له كثير من الأصدقاء، كان من بين زواره رجل عرف نفسه بعلي، رجل خمسيني أصلع الرأس ضخم الأوداج ذو كرش بارز أشبه ما يكون بالمرأة في شهرها التاسع، يتنفس من منخاره محدثًا صوتًا أشبه ما يكون بفحيح الأفعى، يرتدي بنطالاً فضفاضًا من الجينز وقميصًا أزرق اللون، وحذاءً رياضيًّا متسخًا، وما إن صافح أبي وتمنى له الشفاء حتى نظر إلي نظرة عميقة، وقبل أن يجلس قال مخاطبًا إياي:

-أعتقد أنك أم خالد؟ أليس كذلك؟

-نعم أنا أم خالد..أجبته مندهشة.!

لم يخف عليه اندهاشي وبادرني قبل أن أسال بالقول وهو يلقي بجثته الثقيلة على الأريكة حتى ظننت أنها لن تحمله:

- البقية بحياتك، أنا علي صديق زوجك المرحوم صالح، عدت من أفغانستان قبل أسبوع، وعندما سألت عنكم أخبروني أن الوالد هنا فجئت لزيارته والتحدث إليك بأمر هام.

ما كدت أسمع ذكره حتى أصبت بالغثيان وأحسست بأنني سأستفرغ، نهضت من فوري وغادرت المكان وتركته مع أبي.أما وقد طال جلوسه فقد أزعجني ذلك. ذهبت إلى الممرضة وقلت لها:

-إن أبي مرهق ولديه زائر ثقيل الظل أرجوك أخرجيه من عنده.

لم تتوانَ للحظة، اتجهت من فورها وطلبت منه المغادرة، لم أكن أعرف أنه سيقوم بزيارتنا في المنزل فيما بعد.

بعد أسبوع من خروج أبي جاء مع أبيه، وكان أبوه على علاقة مع والدي، كانت زيارة غريبة من نوعها لاحظت تبدل لون أبي وامتقاع وجهه وراح يبتلع ريقه وكأن روحه ستخرج من جسده. بدا لي خائفاً مرتبكًا تخرج الكلمات من

فمه غير مفهومة، ما إن جلسا راح هذا المسخ يحدثنا عن صالح وعن بطولاته في أفغانستان وكيف كان يحارب الأعداء ببسالة ورجولة، سأله أبي:

-هل كنت معه هناك؟

-نعم كنا أكثر من أصدقاء بل إخوة، وقد خضنا معارك عنيفة قتلنا فيها الكثير من الكفرة والأعداء، ونجونا منها بأعجوبة.

-ومتى رجعت من هناك؟

- قبل عشرة أيام.

-وهل رافقته في رحلته إلى السعودية أيضاً؟

-لا بل ذهب وحده ليحج وترك لكم وصية.

- ذهب ليحج؟؟ وترك لنا وصية؟ وما هي تلك الوصية؟

- لقد أعطاني مبلغًا من المال وقال لي قبل أن يسافر وحمَّلني أمانة في عنقي أن أكون وصيًّا على أبنائه من بعده وأن أتزوج من أرملته إن مات أو استشهد.

-هكذا إذن....وأنت اليوم أتيت لتنفيذ الوصية؟

-نعم، فهذا هو المال الذي تركه، وأما بالنسبة لأم خالد فأنا على استعداد أن أضعها في عيني....فماذا قلتم؟؟

قال أبي: أما المال فهو من حق أبنائه، وهم الآن بالغون راشدون لا يحتاجون لوصاية أحد.

وأما الزواج .... توقف أبي عن الحديث عندما تنحنح أبو علي وسعل سعلة مصطنعة فقال وهو ينظر في عيني الرجل: أما الزواج فهذا نترك القول فيه لأم خالد .. هي من يقرر.

أدهشني موقف أبي؛ فقد كنت أتوقع منه ردًّا قاسيًا على هذا المأفون، وأدهشني أكثر صمت أمي وخالد أيضًا، لم يحرك أحد منهم ساكنًا، ولكن لم تطل حيرتي عندما عرفت أن والده الذي يشغل منصبًا رفيعًا في الدولة يطالب أبي بمبالغ ضخمة كان أبي قد استلفها منه في مرحلة إفلاس، والأغرب من ذلك أن أبي أخفى هذه الحقائق عنا ولا أدري لماذا؟!

ولكن ما أدهشني أكثر صمت خالد، والذي تبين لاحقًا أنه دبر له مكيدة ووضع له في حقيبته أقراصًا من المخدرات وأبلغ عنه رجلًا من البحث الجنائي تم التنسيق معه مقابل مبلغ من المال، فهدده وطلب منه عدم الاعتراض على الزواج وإلا....!!

كنت أعلم أنني سأحترق وأنهم سيقضون على آخر نفس حر في رئتي بهذه الزيجة،

قلت لها:

-لا.... لا أمي لن أتزوج من هذا الرجل، فليذهب إلى الجحيم هو وسلطته وأمواله.

لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي توقعت، لم يَدَعِ الرجل الموضوع يمر بسلام، سلّطَ كل كلابه المفترسة على أبي حتى أفلس المصنع علاوة على الشيكات بدون رصيد التي قدمها للمحكمة فبات والدي مهددًا بالسجن في أي لحظة.

ثم توجه لمحاربتي بأبنائي برسالة واضحة وصريحة كتبها لي على الهاتف (أبناؤك سأجعلهم مدمني مخدرات وستخسرينهم إلى الأبد، ولا تستغربي إن تم القبض على خالد ووضع في السجن، كوني عاقلة ونفذي وصية المرحوم وتزوجيني).

اتجهت إلى مركز الأمن وعرضت عليهم الرسالة، وعندما سمعوا أن هذا علي هو ابن ذلك الجشع تخلى الكل عن القضية، وانسحبوا كالجرذان تملأهم الرهبة والخوف. "ما هذا بحق السماء؟ أيعقل أن تكون البلد أُلعوبة بيد تاجر مخدرات منحرف يحتمي بأبيه ذي المنصب الرفيع؟! يُحييْ ويُميت وكأنه إله؟ ولا أحد يردعه أو يجرؤ على الوقوف بوجهه؟ وكيف لي وأنا المرأة الضعيفة أن أجابه هذا الإعصار بمفردي؟ لو كان علاء معي لما أهمني أمره؛

فهو الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذي من هذه الورطة، ولكن هيهات هيهات أين هو علاء؟" كم حاولت الوصول إليه ولم أستطع.

انهارت مقاومتي أمام خوفي على أبي وأبنائي. وأمام فقدان الأمل بعودة علاء ورغبة كل من حولي بالتخلص مني ... استسلمت للأمر الواقع وتم كتب الكتاب، ولكن اجتاحتني رغبة في الانتقام من ذاتي. وراودتني نفسي بالانتحار، لولا إيماني القوي بالله وثقتي به لفعلتها ... لكن وقوف أخي محمد إلى جانبي شد من أزري وعزز من ثقتي بنفسي ومنحني بصيصًا من الأمل ... صليت لربي صلاة الاستخارة ودعوته مخلصة بالدعاء أن يرحم ضعفي وقلة حيلتي وأن يبعد الشر عني وعن أولادي، والأمل بالعباد يخيب أما برب العباد فلا يخيب ويبقى الأمل ولا ينقطع الرجاء.

تم تحديد وقت للزفاف بالسرعة الممكنة لكنني أردت اكتساب المزيد من الوقت، فقلت لهم: أعطوني مهلة للتفكير بالأمر وفرصة للتعرف عليه عن كثب. وسرعان ما وصل الخبر إلى علاء، فهاتفني ليبارك لي، كلمتان فقط قالهما وقفل السماعة، ومعها قفل كل أبواب السعادة في وجهي.

علاء يا ذاك الملاك الطاهر يا من كنت حبيبي، يا من كان طيفك لا يفارقني، لقد خسرتك إلى الأبد بحماقتي، لماذا أنا دائمًا من تضحي لأجل إسعاد الآخرين؟ لماذا لا يضحي أحدهم من أجلي؟

رحت أجهش بالبكاء حتى جفت دموعي، ولكن إلى متى سأظل ألعوبة بيد الآخرين؟ وهل ستعيد لي هذه الدموع ما فقدت من أمل ؟ لا لا، لن أكون ضعيفة وأنا ما زلت بكامل قواي العقلية، ولن أعدم حيلة للتخلص من ذلك الوغد.

جلست معه ولم أكن أطيق حديثه ورفضت الخروج معه. وعندما كان يسألني عن سبب عدم خروجي معه كنت أقول له إنني ما زلت حزينة على صالح، وما زلت أحدثه عن محاسن صالح وحبي له حتى لم يعد يطيق صبرًا، قال غاضبًا:

- تالله إنك لا تفتأين تتحدثين عن ذلك المنحرف، تاجر المخدرات. قلت ولم يدهشني ما قال:

-أوليس صديقك؟ الآن أصبح منحرفًا وتاجر مخدرات؟ ألستما من قاتلتما الأعداء والكفار وقتلتما منهم أعدادًا كبيرة في أفغانستان؟ ومن تكون أنت

إذن؟ أخبرني كيف أوصى لك بالزواج مني، وكيف تقبل أنت بالزواج من امرأة لا تحبك أو تطيقك؟

صمت هنيهة ثم اعتدل في جلسته وقال: سأخبرك بكل شيء، أدركت أنه سيقول أشياء خطيرة، فقلت له مقاطعة كلامه: اسمح لي أن أرد على هذه الرسالة في الجوال، ففتحت آلة التسجيل، ثم قلت له تفضل قل:

قال: كان صالح دائمًا يحدثني عنك وعن جمالك وكثيرًا ما كان يطلعني على صورك فافتتنت بك وقررت أن تكوني لي، ولهذا أرسلته إلى السعودية وأنا متأكد أنه سيلقى حتفه هناك لأنني وشيت به، وقلت له قبل أن يغادر:

-ألا تريد أن تكتب وصية يا صديقي؟ فالدنيا غدارة؟

رد مستغربًا:

-وصية ماذا؟ وماذا سأكتب بها؟

-أوصِ بأموالك وعيالك، ثم لا أحسبك تجد من هو أصدق وآمن مني عليهم.

-سأوصيك بمالي، أما زوجتي فلا أظنها ستوافق على الزواج من بعدي.

- لا عليك يا صديقي ما هي إلا وصية، فإن قبلت كان به، وإن لم تقبل يذهب كل واحد منا لشأنه، وأعدك أن أكون لأبنائك خير أب إذا ما حصل لك مكروه لا سمح الله.

أذهلني هذا الاعتراف، فقلت:

-إذن أنت من قتله، أليس كذلك ؟

-لا بل هو من قتل نفسه، كان غبيًّا استحق الموت، وأنتِ استحققتِ الحياة، والحياة لا تكون إلا مع زوج مثلي ولا أحد غيري.

قلت: يا لك من وغد سافل خائن، أنا لن أكون لك..لن أتزوجك وليكن ما يكون.قال: أوتحبينه إلى هذا الحد؟ قلت: نعم كنت أحبه.. وما زلت أحبه وسأبقى أحبه وأحدثك عنه ما حييت.

صمت مذهولًا ثم تدارك موجة غضبي وقال:

-أنا آسف.. ولكنه رحل...والحي أبقى من الميت، ثم إنني كنت صديقه فقط، ولست شريكه. أقسم لك يا هناء.

- لا داعي للقسم، فأنا لا أصدقك أيها القاتل.

تشاجرنا وخرج من بيتنا وهو يتهدد ويتوعد بأن ينفذ كل تهديداته، وما إن خرج حتى أعدت سماع أقواله كاملة ونسختها على شريط كاسيت وسلمتها لأخي محمد.

في اليوم التالي اتصل به وقال له مهدِّدًا إن الشريط الآن بيد أكبر رجال القانون في البلد إما أن تبتعد عن هناء وإما سيكون الشريط غدًا في المحكمة وسوف نطالبك بدم صالح، ثم أسمعه كل شيء. ثارت ثائرته وبدأ يزبد ويرغي كالكلب المسعور، أغلق السماعة. وما هي إلا دقائق وإذا بوالده يتصل هاتفيًّا بأبي يريد إنهاء الإشكال بالحسنى وحدد موعدًا للقاء، لكن القدر لم يمهله فلكل ظالم نهاية مهما طال الزمن ومهما طغى وتجبر فلا بد من عقاب رباني فقد تعرض لحادث سير أصابه بالشلل التام ولم يعد قادرًا على الحركة أو النطق.

شعر علي بضعفه وقلة حيلته أمام غياب سنده فراح يتوسل إلى أخي بألا يشتكيه فطلب منه أخي تطليقي ومغادرة البلاد فورًا، والابتعاد عني وعن عائلتي، ففعل واختفى دون أن يعرف أحد من كلتا العائلتين إلى أين ذهب!

الفصل الرابع

ألم وحزن ..

عادة تصفح الجريدة ما زالت تلازمني، وها أنا أقرأ بها خبرًا آلمني جدًّا وهو وفاة والد علاء، اتصلت بأمه معزية ثم توجهت إلى مقر الحزب وعقدنا اجتماعاً غير رسمي وقررنا نشر تعزية بالصحف الرسمية، كما قررنا الذهاب إلى عجلون للتعزية، كنت خائفة جدًّا على علاء، خفت ألا يحتمل تلك الصدمة لكثرة ما كان محبًّا لأبيه ومتعلقًا به.

كانت مراسم الجنازة رهيبة، حضرتها حشود كبيرة من الخلق من محبي الحاج محمد مرجان وأنسابه، ومن أصدقاء أبنائه وبناته ومعارفهم، أضف إلى ذلك أبناء عشيرته الذين كانوا يعتبرونه عمدتهم.

بينما كان الرجال يستعدون لأخذ المتوفى إلى المسجد للصلاة عليه، اتجهت أنا ومن معي من النسوة إلى بيت الأجرالخاص بالنساء، وقد كان الكثير من النساء القادمات من عمان وأماكن أخرى للتعزية قد سبقننا، كان حزن أم علاء على فقدان زوجها لا يعادله حزن، وكان حزني أنا لفراقه كبيرًا لما عرفت عنه من دماثة الخلق وطيبة القلب، ولأنه كان يودّني كثيرًا.

كانت أم علاء تجلس على أريكة قرب المدخل حيث يسهل الوصول إليها وتقبيلها، وبناتها يجلسن بجانبها ،لا نواح ولا صراخ، الحزن بادٍ على وجوههن والدموع تنهمر بصمت، كنت أنا آخر من في الصف، عندما احتضنتها شعرت بقشعريرة تسري في بدني من الحزن وضمتني إلى صدرها بحرارة وقالت:

- رحل من أحبك يا ابنتي، لطالما كان يحدثني عنك وعن أبيك.

- رحمة الله عليه يا خالة... نحن أيضًا أحببناه كثيرًا.

لم أتمالك نفسي من البكاء، بكيت ثم بكيت ثم بكيت حتى أبكيت من معي، ليس على فقدان الحاج أبي علاء فحسب بل على نفسي و على فقدان من يحتل قلبي، كان مصابي أنا مضاعفًا ووجدتها فرصة سانحة للبكاء.

أشارت بطرف عينيها إلى صغرى بناتها فأتت مسرعة نحوي واقتادتني إلى صدر المجلس أنا ومن كن معي ثم بادرت بصب القهوة مع تقديم حبة من التمر، شكرتها وقلت بلسان فصيح:

- عظم الله أجركم يا خالة، هؤلاء هن زميلات الدكتور علاء في الحزب ونقابة المهندسين جئنا لمشاركتكم والوقوف بجانبكم في مصابكم الجلل، وإننا لندعو الله أن يتغمد فقيدنا بالرحمة ويدخله فسيح جناته، والأمل والخير باقٍ في نسله وذريته إن شاء الله.

- بارك الله فيكن ولا أراكم الله مكروهًا يا ابنتي.

- بلغوا تحياتنا وتعازينا للدكتور علاء.

قالت متنهدة:

- آه علاء أحسبه سيصل اليوم إن شاء الله، ثم التفتت إلى إحدى بناتها وسألتها: ألم يصل بعد؟ سألت إحدى بناتها.

- . أجابتها..إنه قادم من المطار، اتصل يطلب تأخيرالدفن لصلاة العصر، كي يتمكن من إلقاء نظرة الوداع عليه.

- الله يوصله بالسلامة يا رب.

ما هي إلا دقائق حتى عرفنا أنه وصل، ألقى نظرة الوداع على جثمان أبيه، ولم يستطع منع دموعه من الانهمار، ثم خرجوا جميعهم متجهين إلى المسجد.

في زيارات العزاء، لا يستحسن المكوث طويلًا؛ وذلك لإفساح المجال للقادمين، قلت لها وقد هممنا بالخروج:

-بلغي تحياتنا وتحيات زملائنا الذين لم يستطيعوا الحضور للدكتور علاء.

ثم نهضنا من أماكننا نريد الاستئذان بالخروج فاستوقفتنا إحدى بناتها قائلة:

-إلى أين؟..لن يغادر أحد منكن قبل تناول الطعام، ولتجلس كل واحدة في مكانها.

لم تفلح كل محاولاتنا وأعذارنا في ثنيهم، فاضطررنا للبقاء، وما إن فرغ الجميع من تناول الطعام رجالًا ونساء حتى سمع علاء أن مجموعة نساء من الحزب والنقابة قد أتين للتعزية فجاء للسلام علينا، لم يكن يتوقع وجودي بينهن، عندما شاهدني أصيب بالذهول، لم يكن ذهوله بأقل من صدمتي به عندما تجاهلني وكأنه لم يرني. أسررتها في نفسي وقلبي ينزف ألمًا " آه يا علاء لو تعرف كم أكن لك من الحب في قلبي لو تعرف أيها النورس أنك بنيت قصرك على قمة هامتي وما تلك الجداول المنسكبة على تجاعيد خدي إلى رسائل حب واعتذار في كل قطرة منها ألم وحسرة على فقدانك" قال:

-شكرًا لكم جميعًاعلى تكبدكم عناء المجيء، وشكرًا على تعازيكم في الصحف وشكر الله سعيكم.

-لا تشكرنا يا دكتور علاء، هذا واجبنا؛ فالمرحوم يعتبر والدنا جميعًا. قلت له بلسان فصيح ودون لعثمة. قال: هكذا هو الأمل بكم دائمًا.

مرت أيام العزاء وعاد علاء إلى الإمارات تاركًا خلفه جرحًا عميقًا في قلبي، كنت أطمع منه باتصال واحد على الأقل لا ليشكرني بل ليشعرني أنني لا

أساوي صفرًا بالنسبة له، أما بالنسبة لي فأنا أعرف نفسي أنني بمجرد قبولي الجلوس والحوار مع ذلك المأفون جعلتني دون الصفر، ليس بنظره فحسب، بل بنظري أنا أيضًا.

كيف للمرء أن يحول الصفر إلى رقم ذي فائدة، وينقله من الشمال إلى اليمين ولو خانة واحدة؟ هذا ما كنت دائمًا أسأله لنفسي وأسعى دائمًا لتحقيقه؟ ولم أكن لأجد الإجابة ؟ حتى استجاب الله لدعائي وصلاتي... فقط عندما يقف علاء شامخًا كالطود العظيم رافعًا رأسه إلى السماء يتحدى النجوم بحبه وإخلاصه وتقف هناء ذلك الصفر على يمينه عندها يصير للصفر قيمة و يصير الرقم 10 فلم أعد أساوي صفرًا، إذن لا بد لي من أن أكون صفرًا على اليمين بجانبه لا خلفه ولا أمامه.

عدت أمارس حياتي الطبيعية وأمارس هوايتي المفضلة ألا وهي القراءة، وتصفحت ما كان كتبه لي علاء في الأيام الخوالي.علاء الذي كان يطربني حديثه وجداله وطريقة إلقائه للشعر، آه كم اشتقت لسماع أشعارك يا علاء، آه كم اشتقت للمسة حنانك، كم اشتقت لضحكاتك يا رجل الثلج.لا سبيل للنسيان لعل القراءة تخفف من آلامي.

صبيحة اليوم التالي تناولت صحيفة الرأي وبدأت أتصفحها كالعادة ووجدت فيها أخبارًا عديدة مررت على أحدها مرور الكرام، ألا وهو أن هناك مؤتمرًا علميًّا سيعقد في عمان وسيشارك به نخبة من العلماء العرب، لم يعنني الأمر كثيرًا إلى أن تلقيت اتصالًا من سناء تخبرني بأنها ستأتي لاصطحابي إلى ذلك المؤتمر.

-قلت لها:

-لا.....لا أريد الذهاب، اذهبوا أنتم.

-لا يا هناء كل أعضاء الحزب سوف يحضرون المؤتمر.

-بالله عليك يا سناء دعيني وشأني، الحزب كان علاء وعلاء هو الحزب بالنسبة لي.

-ولماذا ؟ إنه مؤتمرعلمي يا هناء وليس سياسيًّا؟ ثم لا تنسي أن الحزب مشارك به،

قلت: أنا أصبحت كارهةً لكل الأحزاب، اسمعي يا سناء: لا الحزب ولا السياسة ولا العلم عادت تهمني، بعد فقدي لعلاء أصبح كل شيء عندي يساوي صفرًا وبلا أهمية، قالت: لا عزيزتي أنت مخطئة... وإذا قلت لك أن

اسمك قد وضع مع قائمة المشاركين، وأنك مجبرة على الحضور تحت طائلة المسئولية؟؟

-أنا ؟؟ ! من المشاركين؟ وكيف ذلك؟

-أنت من هيئة تنظيم المؤتمر ولجان الاستقبال.

-بالله عليك يا سناء كفي عن الهراء...لن أحضر يعني لن أحضر.

-ستحضرين رغمًا عنك وهذا أمر... قالت ضاحكة.

- قلت لك لن أحضر.

-وإذا قلت لك من أجلي لهذه المرة فقط تعالي معي على الافتتاح ثم غادري فورًا.

-حسنًا ولأجلك أنت، ليس لأجل الحزب، وسأغادر سريعًا.

في صبيحة اليوم التالي كانت دهشتي لا توصف عندما كانت القاعة تغص بالحضور من كبار الشخصيات والعلماء جاءوا من كل حدب وصوب، كنت منهمكة بالاستقبال مع سناء عندما صعد رئيس الوزراء وألقى كلمته الترحيبية بالحضور، تبعه عريف الحفل حيث وقف على المنصة وقال:

- والآن سيداتي وسادتي كلمة رئيس المؤتمر ألأستاذ الدكتور علاء المرجاني ممثلًا لجامعة الإمارات العربية المتحدة، فليتفضل مشكورًا.

يا إلهي، لا أصدق ما أسمع، بمجرد سماع اسمه تسري في بدني قشعريرة ويزداد النبض في عروقي، ينعقد لساني وتخور قواي، فكيف وأنا أنظر إليه واقفًا أمامي بلحمه ودمه ؟ بدأت أتصبب عرقًا وبدأ جسمي يرتعش وأصابتني القشعريرة، وارتفعت حرارتي، وأخذ قلبي ينبض بسرعة يكاد يفر من بين ضلوعي سابحًا في الفضاء الرحب ليحط على راحة يده، ليقول ها أنا بين يديك يا حبيبي أوصل شراييني برئتيك وتنفسني شهيقًا وزفيرًا، ها أنا بين يديك يا حبيبي فاصنع بي ما شئت.

ظلت البسمة واقفة جامدة على شفتي المتجمدتين وحرِصَتْ عيوني ألَّا ترمش خوفًا من أن تُضَيّعَ لحظة دون النظر إلى عينيه.

ها هو يبدأ بالحديث مرحبًا بالحضور، وما إن فرغ حتى اجتاحت القاعة موجة من التصفيق أفاقتني من سباتي العميق أتبعتها أنا بضرب سناء وانهلت عليها بالشتائم، بينما راحت تضمني إلى صدرها وتعانقني بحرارة:

- كنت تعلمين بوجوده إذن أيتها الماكرة؟

- سامحيني، أردتها أن تكون مفاجأة لك.

- ويا لها من مفاجأة، كيف لي أن أنظر بعيونه بعد كل ما جرى؟

- لا عليك عزيزتي.. علاء رجل طيب لا يحمل ضغينة لأحد ولا يحقد على أحد.

- وهذا ما يقتلني يا سناء...أحبه بجنون ولا أستطيع النظر بعينيه بعد الذي عملته.

- الآن اسمعي، دعينا نستمع لما سيقول.

قدم علاء ورقة عمل بأبحاث أجراها على النتائج المترتبة عن التلوث البيئي في العالم وعلى الأخص التلوث النووي الذي تتعرض له منطقتنا بسبب النشاط النووي في مفاعلي ديمونة الإسرائيلية والأضرار الناتجة عن تلك النفايات النووية.

على مائدة الطعام تجمع نفر كثير تسللت من بينهم وركبت سيارتي مغادرة دون أن يشعر بي أحد.

في صبيحة اليوم التالي كانت صور المؤتمر تملأ الصحف، شعرت بالزهو وأنا أقرأ ما كُتب عنه، مكث يومين في عمان، توقعت أن يتصل بي خاصة عندما أخبرته سناء أنني كنت متواجدة في حفل الافتتاح، وأنني لم أسلم عليه خجلًا منه.

غادر عمان بعد يومين وغادرت الابتسامةُ شفتيَّ وتركني بين دموعي وحسرتي مرة أخرى، آه يا علاء ليتني أستطيع نسيانك، لقد تغلغل حبك في كياني حتى صار يجري في عروقي جريان الدم، وترعرع جنين حبك في أحشائي، ما زلت

أغذيه من عذابات آهاتي؟ أما آن الأوان لقطع حبله السري وبروزه إلى الحياة؟ ليتك تعلم أنك تملكت عقلي وفكري ولم أعد أرى في الكون رجلًا يشبهك أو يحل مكانك، آه يا علاء يا فرحي ويا جرحي، يا وطني واغترابي أنت يا حبيبي، ليتك تعرف ما بي... كم أحبك!

دقات قلب ..

ذات يوم جاء ناصر وصديقه لزيارتنا بحكم صداقتهما مع خالد، يومها فتح لي ناصر صدره وشكا لي همه، تذمر من أمه كثيرًا، قال وهو يتناول طعامًا أعددته لهم:

-تعرفين يا خالة نحن كنا محرومين لذة الطعام، لا نأكل إلا السندويتشات والوجبات السريعة؟

-لماذا بني؟ ألم تكن أمك تتقن الطهو؟

رد متهكمًا:

-ها...أمي؟! أمي لم تكن تتقن سوى شرب الخمر والخروج مع صديقها.

- نعم؟!! ماذا تقول؟! الخمرة؟ ومع صديقها؟؟؟ وأين أبوك؟

-أبي سامحه الله، لم يستطع السيطرة عليها وكبح جماحها ولم يطق ذلك منها فطلقها ومضى.

-ولماذا لم يأخذكم معه آنذاك؟

أنا جئت معه لكن نيفين لم يتمكن أبي من اصطحابها.

-القانون يتيح للأم الاحتفاظ بتربية الأبناء حتى يصبحوا في سن الثامنة عشرة.

-وأين هو والدك الآن؟

-والدي يعمل في الخليج.

-يا لها من حكاية، فعلًا البيوت أسرار، ومن يقوم على رعايتكم هنا ؟

- كنت أسكن في بيت جدتي لكنني آثرت الخروج والسكن وحدي، ولي عمة تسكن بالقرب منا تتفقدنا بين الحين والآخر، وأحيانًا نستأجر عاملة نظافة، ولكن أغلب الأحيان نحن نقوم برعاية أنفسنا بأنفسنا، نحن معتادون على ذلك.

-أي بني، أنتم مثل خالد من الآن، أنا من سيقوم على رعايتكم، ثم التفتُّ إلى خالد وقلت:

-ولم لا تسكن معهم أنت أيضًا وترتاح من عناء السفر كل يوم من عمان إلى إربد؟

رد ناصر مبتهجًا:

- أقنعيه يا خالة، كم مرة طلبنا منه ذلك لكنه يرفض.

-ولماذا يرفض؟

-يقول إنه لا يريد مضايقتنا.

-وهل لديكم متسع في شقتكم بني؟

-نعم هنالك حجرة فارغة يا خالة، وسنخصصها له إذا رغب، أرجوك أقنعيه، إنه عنيد جدًّا.

أما وقد حصل واقتنع خالد بالسكنى معهم، فصرت أذهب إلى بيتهم مرة كل أسبوع أتفقد احتياجاتهم في أيام العطل، وكان ذلك محط فخر لخالد الذي أصبح متعلقاً بهما جدًّا، لم يكن أحد يظن أنهم ليسوا إخوة، والأجمل أنه عندما كنت ذات يوم في بيتهم أقوم على رعايتهم جاءت عمتهم، تفاجأت كثيرًا بوجودي فقال لها ناصر وظافر معًا:

-هذه ماما هناء.

مددت يدي لها وصافحتها.

- وأصبحنا صديقتين وصرنا نتبادل الزيارات ما بين حين وحين.

ولم أكن أعلم أنها أخت علاء. فلا هي عرفتني ولا أنا عرفتها.

ذات يوم جاء خالد إلى عمان وكان برفقته ناصر و كنت قد أعددت لهم طعام العشاء، تصادف دخولهما مع بعض النسوة يدخلن فسأل أمي:

- من هؤلاء يا جدة؟ قالت كما ترى يا بني خطّابة.

- ضحك ثم قال ولكن أختي فرح ما زالت صغيرة.

احمر وجهي خجلًا وقتها عندما قالت له:

-الخطابة لأمك يا بني وليس لأختك.

جن جنونه وأخذ يصرخ ويهدد ويتوعد بطردهن.

عندما شاهد ناصر ثورته سأله عن السبب فقال له:

-تصور يا رجل واحدة مثل أمي يأتون لخطبتها بعد هذا العمر؟ نحن ما زلنا نعاني من خيبة الماضي. وغلطة خطبتها من علي.

-دهش ناصر من ردة فعله الغاضبة، فأجابه:

- وما العيب في الموضوع يا صديقي؟ أمك ما زالت شابة وجميلة، وهي بحاجة لمن يرعاها.

-ما العيب...؟! (قال مستغربًا) ابتعد عني يا ناصر، والله لو لم تكن صديقي لحطمت وجهك.

-لا يا خالد أنت شاب جامعي. قريبًا سوف تتخرج وتخرج للحياة أنت وأختك ثم ستتزوجان وترحلان وستتركان هذه المسكينة تصارع الحياة وحدها.

-ماذا تقصد؟

-أقصد أن خالتي هناء ما زالت شابة وهي إنسانة بحاجة لمن يرعاها ويهتم بها.

-أنا أهتم بها وفرح أيضًا، وجدي وجدتي كلنا نهتم بها.

-لا يا خالد أنت لم تفهم، هنالك احتياجات فسيولوجية وبيولوجية واجتماعية لا تستطيع أنت ولا فرح تلبيتها لها، هي بحاجة لرجل، لزوج، دعها تتزوج إذا كان هناك من هو مناسب لها ولكم..

شعر خالد بالهزيمة، ولكنه لم يرد الاعتراف بها فقال منسحباً ومغيرًا لمجرى الحديث:

-دعك من هذا وتعال لنتناول الطعام.

لم أكن أعلم بما دار بينهما لكن على ما فهمت لاحقًا أنهما تناقشا في هذا الأمرأكثر من مرة كان خالد يصمت موافقاً ولكن ليس مجاهراً.

فاجأني ذات يوم عندما سألني:

-أمي..هل كنت تحبين علاء حقًّا؟

ألبكني وأربكني السؤال، فقلت متلعثمة:

-نعم؟! ماذا قلت؟! وما الذي خطر ببالك بعد كل هذه السنين لتسأل؟

-لا لا شيء أمي فقط للسؤال.

-اطمئن بني..لا يوجد شيء من هذا.

قام من مكانه وعانقني مبتسمًا ثم تناول الهاتف وأجرى مكالمة.

-أمي..هذه صديقتي نيفين تريد أن تكلمك.

كانت فرِحَةٌ جدًّا لهذه المكالمة، تفيض حيوية ونشاطًا، بداية لم يكن لدي ما أقوله للفتاة، وعلى الرغم من أن لغتها العربية كانت تبدو ثقيلة على لسانها لكنها كانت على درجة من اللباقة لتخلق موضوعاً للحديث، وقد هممت بسؤالها ابنة من هي، لكنني آثرت تأجيل ذلك فدعوتها لزيارتنا في المنزل. قالت في عطلة نهاية الأسبوع، لكن يجب أن آخذ موافقة عمتي أولًا وأبي ثانيًا، أما أبي فأنا واثقة من أنه لا يمانع، ولكن المشكلة في عمتي فهي تعتبرني أمانة عندها. قلت: هل تحبين أن أكلمها في ذلك؟ قالت: لا، دعيني أحاول معها أولًا.

جاءت برفقة ابنة عمتها نهيل وكانت جَمْعَتُنا على طعام العشاء. كانوا كلهم في غاية السعادة والسرور وعلى الأخص فرح التي انسجمت كثيرًا معهما.

لم يكن خافيًا على أحد تعلق خالد ونيفين ببعضهما، قلت له:

-إنها ما زالت في سنتها الأولى يا بني، وأمامها مشوار طويل لإكمال دراستها. قال أعرف أمي، وأنا سأنتظرها حتى تتخرج، ولكن هذه ليست هي المشكلة يا أمي.

-وما المشكله إذن؟

- نعم إنها تقول إنها لن تتزوج قبل أبيها!

-ماذا تقول؟ هل أفهم أن أمها ميتة؟ قال نعم.... هي ميتة. قلت: ومنذ متى؟ قال منذ زمن طويل وهو يرفض الزواج قبل أن تتزوج نيفين.

قلت ضاحكة.كلاهما يرفض الزواج قبل الآخر...إذن لن يتزوجا قط.

-نعم أمي منذ زمن بعيد وهم يحاولون إقناعه دون فائدة، حقيقة إن حياته وحيدًا هكذا صعبة جدًّا، فأنا الآن قد بت أفهم حاجة الرجل لمن يعتني بشئونه ولباسه وطعامه وشرابه بعد أن عشت حياة العزوبية.

قلت إذن هو يخشى أن تأتي امرأة لا تنسجم مع أبنائه، معه كل الحق، يجب أن يتريث كثيرًا قبل الإقدام على هذه الخطوة.

-قال: نعم. كل أهله قالوا له إنهم سيبحثون له عن واحدة تليق بمقامه وتعامل نيفين كأمها. هل تعتقدين أنهم سينجحون ويجدون امرأة هكذا كأمي؟

-لا أدري يا ولدي، لكن بنات الحلال كثرٌ. قال: لكنني سمعت من نيفين أنه بدأ يلين رويدًا رويدًا، وأوكلها هي وحدها بمهمة البحث عن عروس له.

قلت: وهذا هو عين العقل، يجب عليها هي أن تختار زوجة أبيها والتي ستقوم مقام أمها.

تقبل خالد وفرح فكرة أن يتزوج الرجل؛ وذلك لاحتياجه إلى من يرعى شئونه وشئون بيته، أما فكرة أن تتزوج المرأة الأرملة أو المطلقة، فما زالت قابلة للطرح على طاولة النقاش بالنسبة لهما.

بعد أسبوع فقط من حواري مع ابني، سألتني نيفين مبادرةً:

-منذ متى فقدت زوجك يا خالة؟

-منذ زمن..أجبتها.

-ألم يتقدم لخطبتك أحد، فأنت في غاية الجمال والشباب؟

-بلى..والكثير الكثير.

-أولم يعجبك منهم أحد؟

- لا لم يعجبني أحد.. ولكن لماذا كل هذه الأسئلة يا ابنتي؟! قالت لا شيء، لكنني أبحث لأبي عن عروس، وقد اخترتك أنت، إذ لم أجد واحدة تناسبه أكثر منك. فما رأيك؟

ضحكت ضحكة ممزوجة بالألم وقلت لها: دعك من هذا الموضوع واهتمي بخالد فقط، لكنها كانت مصرة على نزع قبول مني فتحججت بالأولاد وبأنهم يرفضون مبدأ زواجي بشكل قطعي، قالت من؟ خالد وفرح؟ قلت نعم، خالد وفرح. قالت: لا عليك، دعي الأمر لي وأنا كفيلة بإقناعهما.

ضحكت ضحكة كبيرة وقلت:

-أنت واهمة يا ابنتي، زواجي بالنسبة لأولادي موضوع لا يقبل النقاش. قالت بنبرة التحدي: سترين ... سأجعلهم يتقبلون الفكرة ... لا أريد منك إلا أن توافقي فقط. قلت لها هاربة من الإجابة:حسنًا، على أن يبقى الأمر بيني وبينك سرًّا، قالت: أعدك بذلك.

فكرة زواجي كانت مرفوضة لديهم وخطوبتي من علي كانت رغم أنفهم وأنف الجميع، أما الآن فقد تغير تفكيرهما وقد بذلت نيفين جهودًا كبيرة لإقناعهما بقبول المبدأ، ولكن ليس بالسهولة المتوقعة، كان يدور بينهم جدالٌ عنيفٌ في البيت وفي الجامعة وفي كل المناسبات التي كانت نيفين تتعمد إثارة الوضوع بها، تمخض بعد مدة طويلة عن قبولهما للفكرة.

وما زالت نيفين وناصر يحاولان إقناع خالد بالموافقة على زواجي، ولم يعد لديه تلك المقاومة الشرسة، بدأ يلين رويدًا رويدًا.

قالت نيفين لخالد ذات يوم:إن أباها يجب أن يتزوج وأنا بصراحة لم أجد أفضل من خالتي هناء له كزوجة، فتقبل خالد الفكرة بصدر رحب بل وسعيا هو ونيفين لتنفيذها، أما أنا فقد رفضت رفضًا قاطعًا تلك الفكرة.

قال لي خالد:

- أنا أعرف أنك لا تزالين تحبين علاء، لكنه رحل وتركك ولم يقاتل من أجل الفوز بك، إنه لا يستحقك يا أمي عليك أن تنسيه إلى الأبد، والد نيفين رجل مثقف ومتعلم وغني أفضل بآلاف المرات من ذلك المدعو علاء.

قلت: بذمتك أنت مقتنع بما تقول؟ والقاصي والداني يشهد له بالوطنية والرجولة؟ استغفر ربك وعد لرشدك لا تظلم الرجل.

- ولكنه رحل ولم يعاود المحاولة للفوز بك وما يدريك ربما يكون قد تزوج ونسيك؟.

- أما كنت أنت السبب في طرده وشتمه بل وتهديده؟

- أوه أمي لقد كنت صغيرًا جاهلًا وقتها.

- وهل كبرت وعقلت الآن؟

- نعم أمي ولذلك فإنني أرى والد نيفين شخصية مميزة يليق بك أمي، إنه رجل متعلم وذو منصب ومال وألف من تتمناه. قلت هل رأيته بني؟ وهل جلست معه وسمعت منه أنه يريد الزواج أصلًا؟ أما قلت أنه يرفض الزواج؟ قال: لا، ولكن أنا واثق أن نيفين ستقنعه بل ومصرّةٌ على تزويجه.

قلت: وهل تضمن أن يعجبني وأعجبه؟ قال بالتأكيد لن تجدي أفضل منه أمي، وهو لن يجد أفضل منك. قلت كيف؟ قال لا يهم سنقوم بترتيب لقاء بينكما وستتحدثين إليه.لا تقلقي أمي.....

كان مندفعًا جدًّا ومتفائلًا جدًّا فسايرته ولم أرد إطالة الحديث معه.

عودة علاء من الإمارات ..

خالد لم يعد يأتي إلى عمان إلا في نهاية الأسبوع، وفرح تكمل دراستها في بيروت، ولم يبق بالبيت سواي أنا وجريدتي، وأم كلثوم، وذكريات وقصائد علاء.

تبلدت أحاسيسي، وأدمنت الغياب، وأحسست بفقدان الأمل بعودته، كنت أحاول جاهدة نسيانه ولم أعد لأهتم أو لأكترث لغيابه عني، فوجوده وعدمه أصبح سيان بالنسبة لي.إلا أن أشد ما كان يؤلمني حلول فصل الشتاء وهطول الثلوج، صرت أتمنى ألا تتساقط الثلوج، أصبحت أحسها كالصخرة تجثم فوق صدري.

ارحل أيها الثلج الأسود، كنت في السابق أبيض أما وقد أصبحت أسود فلا حاجة لي بك بعد الآن، لن أخرج للعب بك ولن أصنع منك رجل ثلج مرة ثانية. رحل رجل الثلج ولم يرحل الثلج، ورحلت معه نضارة وجهي وهروب شبابي، بدا الشيب يغزو مفارقي، وها أنا أكرس كل حياتي لأبنائي لن أخذلهم بعد اليوم.

أما صديقتي المفضلة جريدة الرأي فقد أصبحت لا أرى حروفها بوضوح، تعالي أيتها النظارة الحبيبة. كبّري تلك الحروف اللعينة، لعلي أجد بين طياتها ما يفرح القلب.

وانتهى مسلسلي المفضل (امرأة بنكهة القهوة) بحلقاته الطويلة، وأصبح التلفاز عدوًّا لي لا أطيق رؤيته، لم يبق لي ونيس غير الجريدة والكتاب والراديو وأم كلثوم.

أما والدي فقد ساءت حالته الصحية واستفحل به المرض، فاضطررنا لنقله إلى المشفى، قرر الأطباء بتر ساقه، وانتشر خبر دخوله إلى المشفى في الصحف المحلية، بعدها انهالت علينا الاتصالات والزيارات لم يبق أحد من معارفه لم يزره أو يتصل به، حتى أم علاء اتصلت وتمنت له الشفاء، ما عدا علاء، لم يتصل ولم يحرك ساكنًا.

آلمني ذلك كثيرًا " ألهذا الحد تكرهني يا علاء؟ ثم ما ذنب أبي ... ألم يكن صديقك وحبيبك؟ ... هل نسيت العشرة؟ .. سامحك الله يا علاء سامحك الله يا حبيب القلب".

تم بتر ساق أبي وأصبح لا يقوى على المسير فاشتريت له كرسيًّا متحركًا، ولأن بيته يحتوي على كثير من السلالم والدرج قررنا الانتقال إلى بيت جديد

شرعت بإنشائه على قطعة أرض كنا قد اشتريناها قديما، وكان عبارة عن فيلتين متجاورتين في ضاحية الرشيد.

أما المصنع فلم يكن أمام والدي غير أخي محمد ليوليه شئونه الإدارية، لم تمض سنة واحدة حتى أفلس وأغرقه بالديون، وبدأنا نبحث عن الحلول قال لي أبي:

-لا يوجد من هو أكفأ من الدكتورعلاء لإيجاد مخرج لهذه الأزمة، ولكن أين هو علاء؟ لا أحد يعرف له مستقرًا.

-هل ترك الحزب؟

-لا أعرف أبي .. أنا منقطعة عن الحزب منذ زمن طويل.

-يقولون إنه عاد من الإمارات؟

-نعم سمعت أنه عاد.

-وزميلتك سناء ألا تعرف عنه شيئًا؟

- آه .. والله لقد ذكّرْتني بها، منذ مدة لم أطمئن على أخبارها، كانت مسافرة مع زوجها، وأتوقع أن تكون قد عادت الآن ... سأكلمها فورًا.

عرفت أنها قد وصلت قبل يومين من أمريكا، ذهبت لتلد مولودها الأول عند أخيها في أمريكا ليعود المولود أمريكيًا في بلاد لا تحترم إلا من هو أمريكي ...

معها حق. باركت لها بالمولود وذهبت في اليوم التالي لزيارتها سألتها عن علاء فقالت:

-ما الذي تودين معرفته عنه؟ عودته من الغربة مثلًا؟ أبشرك فقد عاد إلى عمله في الجامعة.

قلت مكابرة: -الحمد لله على سلامته ... وما هي أخباره يا ترى؟

-حقًّا ؟أما سمعتِ بأخباره؟

-لا لم أسمع، لو سمعت لما سألتك.

- إذن إليك الخبر الأهم فقد قرر الزواج؟

تبسمت ابتسامة غير المصدقة، ونظرت إلى شفتيها لعلي ألمح ابتسامة تدل على أنها غير جادة فيما تقول.

وبدأ العرق يتصبب عن جبيني، وأحسست بضيق المكان، بدأت أتململ متذرعة بارتفاع درجة الحرارة، بينما راحت تتابع حديثها:

-ماذا أصابك يا هناء ... هل أنت بخير؟

قلت مبتسمة لا...لا.... شيء.

-وهل ستباركين له؟

-بالله عليك يا سناء هل أنت جادة فيما قلتِ؟

-كل الجد، أنت تعرفين أنني لا أمزح في مثل هذه المسائل خصوصًا مع علاء، والأمر بات شبه علني وذلك بناءً على رغبة أبنائه وهم من وجدوا له العروس ولم يبق إلا أخذ موافقتها. وسيعلنون خطوبتهم قريبًا.

خنجر غرسته هذه الحمقاء في صدري؟ ليتني لم آتِ لزيارتها ليتني لم أسألها، ليتني بقيت بجهلي؟ آه يا إلهي كم هو مؤلم هذا الإحساس "هل يا ترى كان إحساسه مؤلمًا ونازفًا هكذا عندما سمع بموافقتي على الزواج من علي؟ بالتأكيد لو لم يكن قد تألم لما أقدم على هذه الخطوة الانتقامية، ولكن لماذا ألومه؟ لا لن ألومه أبدًا، لكن ليته يدري بما فعلت من أجله، ليت أحدًا ما يخبره، ومن سيخبره والأمر سر بيني وبين أخي وعلي لم يطلع عليه أحد؟ ألمٌ وحسرةُ واغتراب عن الذات، كم أتمنى الموت قبل أن أرى واحدة غيري تمسك بذراعك يا علاء".

إنه على تواصل دائم مع سناء وأحمد وبالتأكيد أن أخباري تصله أولًا بأول عن طريقهم.

-بماذا تفكرين يا هناء؟ سألتني سناء.

-نعم؟

تنبهت من سباتي وقلت ضاحكة:

- بأشياء كثيرة يا عزيزتي.

-مثل ماذا؟

-خجلت أن أبدي لها ضعفي فقلت:

-أبي وأخي في ورطة ولا نجد لها حلًّا، منذ أن تسلم أخي إدارة المصنع انهار كل شيء وأفلس المصنع وأغرقه أخي بالديون.

ما كدت أنهي كلامي وإذ بأحمد يدخل مهللًا ومرحبًا وقد سمع ما قلت وعلى الفور قال:

- لم لا تتسلمين أنت إدارة المصنع؟

-أنا؟! قلت مستغربة..أنا لا أتقن شيئاً في هذه الأيام إلا الحزن، ووظيفتي.

-بالله عليك لا تقولي..أنت قادرة على ذلك.

-كيف...وأنا لا أمتلك الخبرة في هذا المجال؟

-بل لديك كل الخبرة؟

-تنهدت تنهيدة عميقة ولم أستطع أن أحبس تلك الدمعة الخجولة.

قال:

-هناء..هل ما زلت تحبينه؟

-وما الفائدة يا أحمد؟ يبدو أننا لم نخلق لبعضنا، فها هو قد وجد المرأة التي تناسبه، وسيتزوجا قريبًا، فهو لن ينتظر سرابًا اسمها هناء طوال عمره.

- هناء...علاء يحبك ولن يستطيع أن يحب غيرك.

- بالله عليك كف عن استغفالي يا أحمد.

-أنا لا أستغفلك، لكن لا تنسي أنني مستودع أسراره ولا ينفث زفرات قلبه المكلوم إلا لي إن كنت تتألمين شبرًا فهو يتألم مترًا.

-علاء يكرهني ويكره أبنائي، هل تصدق؟ أنت اتصلت من أمريكا لتطمئن على أبي، وهو لم يفعل؟!

-لا بأس يا هناء فقد كان جرحه كبيرًا جدًّا، ثم من قال لك أنه يكرهك؟

-كل تصرفاته توحي لي بذلك.

- أنت مخطئة جدًّا ... لعلمك أن علاء أقسم أمامي بالله إنه لن يتزوج من غيرك ولو كان عمره سبعين عامًا؟

-أهو من قال لك ذلك؟

-نعم.

-متى؟ قبل ثلاث سنوات؟؟

لا بل بالأمس كنت أسامره في بيته...كان هنا في عمان.

- وخطوبته، هل هذا كذب أيضا؟

- لا ليس كذبًا، ما قالته سناء صحيح لكن المخفي أعظم؟

- وما هو المخفي يا ترى؟

- سأخبرك على أن يبقى الأمرسرًّا بيننا.

- موافقة..هيا أخبرني.

- علاء يتعرض لضغوط كبيرة من أبنائه وهم يلحون عليه إلحاحًا ويصرون إصرارًا على زواجه، فهم يقولون أنهم وجدوا له امرأة مناسبة تحبهم ويحبونها، وأسر لي أنه سوف يجعلها تتقزز منه وتفر هاربة منذ أول لقاء، وبهذا يكون قد تخلص منها ومن ضغوطاتهم؟

لم أصدق ظننت أنه قال ذلك ليرفع من معنوياتي، في حقيقة الأمر فقد فعل، ارتفعت معنوياتي كثيرًا وحتى لو كان يكذب فإنني أحببت تلك الكذبة، أشعرتني بوجودي وبقيمتي وأعادت لقلبي كرامته المفقودة ولو أمام سناءعلى الأقل.

أجهشت بالبكاء، وأخذا يهدئانني، قلت:

رغمًا عني، لم أكن بوعيي، كنت يائسة بائسة مسلوبة الإرادة، وأردت إنقاذ أبنائي و أبي وأخي والمصنع، لكن لا أحد يدري لماذا غادر علي البلاد إلى حيث لا عودة. قلت: وهل ينفع الأسف والندم، لو قلت أنني جد نادمة وآسفة؟

-نعم ينفع، فقط بقليل من الإرادة والتصميم و...

-ماذا أفعل كي لا أساوي صفرًا؟ أرجوكم ساعدوني.

-لا تقلقي إن مع العسر يسرًا. ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، سنتولى هذا الأمر.

سرحت بعيدًا في أفكاري فأيقظني سؤاله:

-ها..ماذا قررتِ..؟ هل ستديرين المصنع ؟

قلت:

-وهل ستساعدني أنت؟

-بكل تأكيد فأنت من الحزب ومن الواجب علينا الوقوف بجانبك دائمًا.

-كيف؟

يتقدم السيد عدلي بطلب قرض بنكي، به سنعيد ترميم وتشغيل المصنع، وسيكون شركة مساهمة يساهم بها الحزب بنسبة لا بأس بها وستعرض بقية الأسهم لمن يرغب، وعليك المباشرة بالعمل من الآن.

شكرتهم وغادرت المكان تملأني السعادة الممزوجة بالمرارة والأسى، وتوجهت فورًا إلى أبي وحدثته بما جرى فاستحسن الفكرة، ولأن أبي رجل أعمال معروف كل البنوك تتمنى التعامل معه فلم يجد صعوبة في التمويل، وفعلًا تم إعادة تأهيل المصنع وطرحت أسهمه بالأسواق.

قلت لأبي:

- أبي أنا سأتولى إدارة المصنع منذ اللحظة، وقد أقسمت ألا يدخل به قرش واحد من أموال الحرام.

-ولكن ... المصنع بحاجة إلى الكثير من المال، والقرض الذي أعطانا إياه المصرف الإسلامي لا يكفي.

-لا عليك أبي، فقد أخبرني أحمد أنه سيتم تسجيله كشركة مساهمة وأن هنالك شخصية خليجية من معارفه يرغب في شراء نصف الأسهم المطروحة وسيترك أمر إدارته لي. فما رأيك ؟

-أما عرفت من يكون؟

-لا لكن أحمد يبدو واثقًا به، وطمأنني بل وشجعني على ذلك. وقال إنه سيجمعنا مع بعض في القريب لتوقيع العقود و للتعرف عليه.

فرح أبي كثيرًا وارتفعت معنوياته خاصة عندما باشرت بإعادة الجدولة ودراسة وضع المصنع، كان لا بد من وجود مهندس ذي خبرة، فاستعنت بأحمد، قال لي إن لديه أصدقاء كثيرين وسيكلم أحدهم للمرور على المصنع، شكرته وعُدْت لأعقد اجتماعًا مع العاملين وأعدت الهيكلة ووعدتهم بتحسين أوضاعهم إن عملوا بجد وإخلاص وعينت منهم مساعدًا اسمه زكريا، كان أبي يثق به فأوصاني بالتمسك به لصدقه وأمانته.

اتصل بي أحمد وحدد لي موعدًا للقاء ذلك الشريك، وقبل نهاية المكالمة سألته هل عرف علاء بكل هذه التطورات؟ قال وهل يهمك أن يعرف؟ قلت نعم ويهمني أيضًا أن يعرف أنني آسفة جدًّا، وأخبره بأنني نادمة جدًّا، أخبره بأنني أحبه جدًّا، أخبره أن يسامحني أخبره...أخبره...أخبره..أرجوك أرجوك.

رد ضاحكًا وقد ظننته شامتًا:حسنًا سأخبره بكل شيء.بالمناسبة هذه سناء تريد التحدث إليك.

تبادلنا التحيات ودخلت معها فورًا بالموضوع قلت لها: وأنت يا سناء ألست صديقتي الصدوقه؟ أرجوك أرجوك أن تتدخلي بيننا أنا ما زلت أحبه.قالت: ومن قال لك إنني لم أتدخل، لقد تدخلت بكل قوة، وأحمد أيضًا لم يقصر، وانتظري مني أخبارًا سارة. قلت وقد ازدادت خفقات قلبي، بربك هل

تقصدين عن علاء؟ قالت لن أخبرك بأي تفاصيل وعلى رأي المثل يا خبر بفلوس بكره يصير ببلاش.

وحان موعد توقيع العقد، اتصل بي أحمد ليخبرني أن الشيخ الخليجي اعتذر عن المجيء وقد أوكله هو بتوقيع العقد.

لم أهتم كثيرًا بهندامي ولم أتزين بل ذهبت وأنا قلقة حول هوية ذلك الشخص الذي كتم أحمد وسناء اسمه عني. وما فاجأني أن العقد سيتم توقيعه في بيتهم، وما إن دخلت حتى فوجئت بموجة من التصفيق من أحمد وسناء، وقد أعدوا قالبًا من الحلوى وأشعلوا وسطه شمعتين، وزينوا المنزل بالبلالين، وفورًا شاركتهم التصفيق ظنًّا مني أنه عيد ميلاد أحد الأبناء، تبادلت أنا وسناء القبلات على المدخل وهمست بأذنها معاتبة لماذا لم تخبرني لكي أحضر هدية للطفل، تجاهلت سؤالي وأغلقت الباب خلفي واقتادتني إلى الصالة لأجد المفاجأة ، أحمد وعلاء وقفا وأخذا يصفقان لي، لم أعد أدرك هل أنا في حلم أم حقيقة، أذهلتني المفاجأة، ورحت أبكي وأذرف الدموع مدرارًا، وعندما شاهدت علاء مبتسمًا لي توجهت نحو سناء وانهلت عليها أضربها بحقيبتي، حتى احتوتني بذراعيها وأجلستني، قالت: أعرفك على شريكك في المصنع الدكتورعلاء المرجاني.بقيت مبحلقةً في عينيه ولم أنبس

ببنت شفة، نهض من مكانه واقترب مني وبمنديل مسح دميعاتي ومد لي يده مصافحًا فصافحته واقتادني من يدي وأجلسني بجانبه على نفس الأريكة، قلت له: أنا آسفة...لم يدعني أكمل أغلق فمي وأغلق معه ملف الخصام.

لكن ملف المصنع لم يغلق طلبت من زكريا مواصلة العمل مع أحمد دون الرجوع إلي.

أخبرت والدي بما جرى، فسر كثيرًا وارتاحت نفسيته وبدا يتعافى من مرضه.

عادت المياه إلى مجاريها بيني وبينه ولكن بقليل من الحذر والحيطة وما زال الأولاد يلحون علي القبول بزواج والد نيفين فقررت الاستعانة به.

ومن فوري،، طلبته والدموع تغمرني:

-ما بك يا هناء ؟ لماذا تبكين ؟ سألني بقلق بالغ.

-الأولاد مصممون على تزويجي؟

-ماذا ؟ لا شك أنك تمزحين؟

-لا.. لا أمزح بل وقد وجدوا لي العريس أيضًا تخيل؟!

إنهم يمارسون علي ضغطًا كبيرًا، ليس هم وحدهم فحسب بل وكل عائلتي.

قال ما العمل إذن؟ قلت تخيل أن خالد هو من يريد ذلك ويمارس علي ضغوطًا كبيرة لكي أوافق. قال: لا أظنك جادة فيما تقولين. قلت بل جادة كل

الجد، وأنا أحبك كل الحب ولن أستبدل بك كنوز الأرض كلها. أخبرني ماذا أفعل؟ أنا في حيرة من أمري.

ظل صامتًا واجمًا هنيهة ثم قال: ما هذا برب السماء، أنا أيضًا أبنائي يمارسون علي نفس الضغوط. لا بد من إيجاد وسيلة للخروج من هذا المأزق، دعيني أفكر بخطة وسأخبرك بها لاحقًا.

-حسنًا..لا تتأخر علي حبيبي..أنا أحبك

-وأنا أيضًا أحبك.

-مع السلامة.

في المساء كانت نيفين تجلس مع أبيها تسامره، رأته حزينًا كئيبًا، فتقربت منه كعادتها تتلمس ذراعيه واتكأت على فخذه وسألته: ما لي أراك مهمومًا يا أبي؟ قال لا شيء، دعيني لوحدي، قالت: لا لن أدعك قبل أن تخبرني ما بك، وظلت تلح عليه وتسأله: أما مرت بحياته امرأة نالت إعجابه؟ قال لا تفتحي جروحي يا نيفين، وما زالت ترجوه حتى أفرغ ما في جعبته، قالت مستغربة: إذن كنت تحب امرأة وانتهت علاقتكما بالفشل؟ قال نعم، ولكنها مع الأسف ستتزوج. قالت ومن أخبرك بذلك؟ قال: هي أخبرتني، وقالت أن ابنها قد وجد لها عريسًا وأحسبها لن تستطيع المقاومة. قالت: يبدو أنها عديمة الشخصية،

دعك منها فقد وجدت لك عروسًا أفضل منها تليق بمقامك، لو كانت تحبك حقًّا لما تخلت عنك مهما حصل.

ضحك وقبلها ثم قال: لا تتعبي نفسك يا نيفين أنا لست راغبًا في الزواج الآن.

قالت وهل ما زلت تحبها؟ قال نعم، وأتمنى لها السعادة؛ فقد عانت كثيرًا في حياتها. قالت: أبي أنا وجدت لك عروسًا رائعة على قدر كبير من الجمال والثقافة، إن رأيتها ستنسى كل نساء الأرض.

قال حسنًا، ولكن لن يكون ذلك قبل أن تتزوج هي .. سأنتظرها، وعندما أفقد الأمل منها سألبي رغبتك بنيتي، والآن أعطني قبلة واذهبي إلى فراشك.

على الهاتف كانا يرسمان خطة للتهرب من ضغوط الأبناء، تعاهدا ألا يفترقا حتى الموت، قال لها:

-علينا بإظهار الموافقة مبدئيًّا والمماطلة حتى نجد مخرجًا، فما رأيك؟

-إنهم يحاولون ترتيب لقاء لي مع ذلك الرجل والد صديقته.

-ابنتي أيضًا تقول إنها وجدت عروسًا مناسبة لي وستجمعني بها لأتعرف عليها، تقول إنها في غاية الجمال والرقة.

ضحكنا وتبادلنا كلمات الغزل واتفقنا على المماطلة.

مرت الأيام وعلاقتي مع علاء كما هي لم يطرأ عليها أي تغيير، كان يأتي بين الحين والآخر إلى عمان ونلتقي في مقر الحزب فقط للسلام على الزملاء، قلّ نشاطه السياسي وتفرغ للبحث العلمي، كان يمر أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ولم يأت إلى عمان، وتسلم أحمد قيادة الحزب.

لم يستطع علاء مقاومة رغبة ابنته في تزويجه فقال لها:أعطني مهلة حتى الصيف لأنني مشغول جدًّا هذه الأيام. في حين ما يزال ابني خالد يقنعني ويغريني بأبي صديقته للقائه والتعرف عليه ويكيل له المديح والثناء وانضمت له نيفين لتقنعني بلقائه.

أصبت بالصدمة عندما أخبرني علاء بذلك وبدأنا نبحث عن حل.

- أنا وجدت الحل.قال علاء

- أرجوك....هيا أخبرني به بسرعة.

- انتظري لنهاية الأسبوع.

- لا لالا..لن أستطيع الانتظار ولو ليوم واحد..أرجوك علاء أخبرني...أكاد أنهار من الضغوط التي تمارس علي من أبنائي وحتى والدي ووالدتي أيضًا كل من حولي يلح علي بالزواج.

- حسنًا اسمعي..سألتقي مع تلك المرأة وسأرتدي أسوأ الثياب مهلهلها ولن أحلق ذقني، سأسمعها كلامًا يجعلها تحرم الزواج إلى الأبد. فما رأيك؟ قالت إنها فكرة جيدة، لكنني أغار عليك منها ربما تكون أكثر شبابًا و أجمل مني. قال: لا تخافي حبيبتي، ولا يوجد أجمل منك في عيني. قالت والعبرات تنسكب من عينيها...لا لا الفكرة مرفوضة...لا تذهب للقائها. قلت حاضر لن أذهب، قالت....كم أحبك يا علاء ،قلت وأنا أحبك يا هناء.

- وأتت إجازة الصيف، فطالبته ابنته بتنفيذ ما وعد به. قال لها حسنًا، لقد فكرت في تلك المرأة التي ذكرتها لي إنني أرغب بمحادثتها والجلوس معها، ولكن قبل ذلك هل تخبرينني ما اسمها وكم عمرها وابنة من هي؟

- قالت نيفين: لن نخبرك بشيء قبل أن تراها. قال كيف ذلك؟ قالت سنعد لكما لقاءً عفويًّا وسيبدو كأنه تصادفٌ، ثم نترك المجال لكليكما لتتعارفا. قلت لماذا؟ قالت بصراحة أبي .. إنها ترفض الزواج أو الجلوس مع أي رجل، وأنا واثقة من قوة شخصيتك في التأثير على النساء، إنها بمجرد أن تراك حتمًا ستوافق.

- قلت في نفسي الحمد لله أن تأتي منها وليس مني.

في الطرف الآخر كان يدور بيني وبين ابني خالد وفرح نفس الحوار. قالا لي: أمي أنت فقط اجلسي مع الرجل فإن أعجبك كان بها، وإن لم يعجبك فكفى الله المؤمنين شر القتال. قلت لهم: لا ليس قبل أن أعرف عنه كل شيء.

قالوا لن نخبرك بشيء قبل أن تريه، وسنجعل اللقاء بينكما كأنه صدفة نترككما معًا كي تتعارفا، ونحن واثقون من قدرتك على الاختيار، فإن أحببته كان بها وإن لم تحبيه يمضي كل واحد منكما لشأنه، ونحن واثقون أنك ستقنعينه بنفسك.

قلت: أقنعه! أوليس بمقتنع هو؟ قالوا: لا أمي ليس هذا... هو ليس بمقتنع بفكرة الزواج وليس بك، فإن رآك ورأى رقتك وجمالك حتمًا سيغير رأيه ويوافق دون تردد.قلت بقرارة نفسي "الحمد لله أنها ستأتي منه وليس مني".

وهكذا أخذت الأيام تمر ونحن نماطل حتى أصابهم الملل وتخيل لنا أنهم صرفوا النظر عن الموضوع، لكن ذلك لم يحصل، فقد كانوا قد اتخذوا قرارهم ورسموا خطة للإيقاع بنا في فخهم.

في إربد ..

ما زالت نيفين تلتقي بخالد في أيام العطل الرسمية لأنه كان منشغلًا بوظيفته وقد نشأت بينهما علاقة عاطفية رائعة، كانا في غاية الانسجام.

في اليوم التالي جاءت نيفين لزيارتنا، سعدت برؤيتهما متحابين وتمنيت لهما السعادة، كانت نيفين كالزهرة الفواحة تنشر عبيرها على كل أرجاء المنزل بابتساماتها وضحكاتها، وبعد أن تناولنا طعام الغداء طلبت الجلوس إلي وعلى انفراد. في غرفتي الخاصة جلسنا وغلقت الأبواب، وقبل أن تتفوه بكلمة قلت لها: لا تحاولي يا ابنتي لن أتزوج من أبيك، وليس لنقص أو عيب فيه إنما....ولم تدعني أكمل قالت:

خالتي بالله عليك لا ترديني خائبة، فقط فكري بالأمر قليلًا، أريدك أن تجلسي معه ولو لدقائق وبعدها كلنا سنحترم قرارك.

(يا إلهي ما هذا الإصرار العجيب؟ والله لو لم يكن علاء بحياتي لقبلت كرمالا لهذه الصبية الوفية) قلت وبشيء من الحزم: لا..لن ألتقيه أبدًا، أرجوك سامحيني يا ابنتي.

وهكذا بقينا أنا وعلاء صامدين نماطل أمام رغباتهما لكن الفتية كانوا يعدون خطة، قال لي خالد:

-أمي اليوم هو رأس السنة وأريد أن أدعوك على حفلة في مطعم فاخر فما رأيك؟

-ونيفين هل ستأتي معنا؟

-لا...هي ليست بعمان وستسهر مع أبيها في بيتهم في الكرك.

قال هذا وأدار لي ظهره كي لا تفضحه عيناه وخرج.

نفسي تتوق للفرح وعادت الروح إلي بعودة علاء وبدت لي كل الأماكن جميلة. فقبلت الدعوة ولكنني وكالعادة لم أحفل بزينتي ولأول مرة أرى خالد يهتم بي وبزينتي كلما ارتديت ثوبًا قال لي لا.....هذا ليس جميلًا.. ارتدي شيئًا أجمل حتى بت أشك فقلت له: إياك أن تكون قد دبرت أمرًا، فإن فعلتها سأترككم وأعود إلى البيت.

تبسم ابتسامة نكراء خبيثة وأخذ يحلف أنه لا مكائد ولا مؤامرات.

كانت الطاولة محجوزة لأربعة أشخاص جلسنا أنا وخالد على مقعدين وحضر النادل يسألنا ماذا سنشرب.

- أعطنا فنجانين من القهوة لو سمحت - قال له خالد.

لم تكد القهوة تجهز حتى نهض من مقعده وأجرى اتصالًا هاتفيًّا مع نيفين وقال لي:

-أمي، هذه نيفين تريد أن تبارك لك بالعام الجديد، ثم ناولني الهاتف النقال ووضعته على أذني بقوة لكي أستطيع السمع، فالموسيقى كانت صاخبة.وأنا ما زلت أتحدث معها ظنًّا أنها في الكرك ولم أنتبه إلى يدها وهي تضعها على كتفي، كانت مفاجأة سارة تبادلنا القبلات وجلست، وما هي إلا دقائق حتى تبعها رجل ببدلة أنيقة ووقف بجانبها.

ذهلت ودب الخوف في جسدي وصرت أرتعد خوفًا، ودارت في ذهني آلاف الأسئلة بخلال ثوان، هل كنت تراقبني يا علاء؟ هل تشك بي؟ يا إلهي كيف أقنعه ببراءتي.

لكن مبادرة نيفين أوقفت الكلام على شفتي وبقي ابني خالد مشدوهًا مصدومًا من هول المفاجأة، عندما قالت لنا نيفين: أقدم لكم سي بابا الدكتور علاء المرجاني، ثم التفتت إلى أبيها وقالت: وهذه خالتي هناء وابنها خالد.

ولكم أن تتخيلوا ذلك الموقف...صمت رهيب ساد المكان بعد أن تصافح الجميع وجلس كل على مقعده....دقائق حتى انفجرنا جميعنا بالضحك الهستيري..ويا لها من ليلة من ليالي العمر عاد علاء إلى حضني وراقصني وغمرني بالحب والحنان وأسمعني أعذب أشعاره.

وتحقق الحلم ..

غردت كل الطيور بداخلي وتفتحت أزاهير قلبي وشممت عطور الياسمين تفوح في كل الأماكن وسرحت في عالم نرجسي بثوبي الأبيض تتراقص من حولي الفراشات في تلك المروج المزهرة وهو يمسك بيدي ويراقصني، ولم أفق إلا على قبلاته، فانسكبت دميعات على وجنتي المحمرتين خجلًا، ورميت رأسي على صدره.

خمسة أعوام مضت عوضني بها علاء عن سنين حرماني وأنساني كل أحزاني ولا يمر عام إلا ويأتي رجل الثلج ذو الكوفية إلى حينا لنلعب الثلج. قالت لمار والدموع تنسكب من عينيها:

إذن رجل الثلج ذو الكوفية كان أبي، أليس كذلك؟

نعم هو أبوك.

وها نحن اليوم سنفرح بزواج أختك نيفين من أخيك خالد...هل فهمتِ الآن ؟

نعم أمي، وغدًا سأخبر صديقاتي بهذه القصة.

.. تمت بحمد الله ..

ملخص الرواية

1- بدأت أحداث الرواية في الأعوام الأخيرة من القرن العشرين مع بداية الثورة التكنولوجية وظهور الهاتف النقال.

2- تدور أحداث الرواية ما بين العاصمة عمان وعجلون وإربد، ولا تخلو من حالات الاغتراب في أوروبا والخليج.

3- الرواية تتكون من مجموعة من العناوين لتضع القارئ بالزمان والمكان والحدث.

4- تتناول الرواية عرض مشكلة الزواج من الأجنبيات وما يترتب عليها من مشاكل أسرية، كما تتناول قضية تزويج الفتيات بالإكراه وما يترتب عليها أيضًا من مشاكل أسرية.

وتستعرض الأوضاع السياسية والديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي في الأردن في تلك الحقبة من الزمن

5- بطل الرواية علاء رجل أكمل تعليمه في مجال الهندسة من إيطاليا، وتزوج من امرأة إيطالية وأنجب منها ولدًا وبنتًا، وهو رجل صاحب فكر سياسي وأديب وشاعر.

6- لم تستمر حياته مع زوجته الإيطالية، فغادرت الأردن وأخذت معها ابنتها، في حين بقي الصبي ناصر مع أبيه.

7- بطلة الرواية هناء تزوجت من ابن عمها صالح وهي صغيرة السن وغير راغبة به.وعانت الأمرين بعد أن هجرها وسافر للقتال في أفغانستان مع القاعدة.

8- يلتقي علاء بهناء في محل تجاري فيقع في حبها من أول نظرة، فقرر متابعتها حتى وصلت إلى بيتها واستطاع معرفة رقم هاتفها وراح يكلمها على وجل.

9- حاولت هناء صده بكل الوسائل لكنها لم تفلح، لتنشأ بينهما علاقة عاطفية غير معلنة.

10- ألقي القبض على صالح في السعودية متلبسًا بالاتجار بالسلاح والمخدرات وتم إعدامه.

11- يتعرض علاء إلى العديد من الاعتقالات، ويسافر إلى إيطاليا لنيل درجة الدكتوراه، ثم يعود ومعه ابنته نيفين بعد أن أكملت الثانوية وبلغت السن القانونية واتخذت قرار العودة مع أبيها إلى الأردن. لتكمل تعليمها في جامعة اليرموك. وهناك تعرفت على خالد ابن هناء الذي كان في سنته الأخيرة، وتنشأ بينهما علاقة حب.

12- كانت العلاقة بين علاء وهناء بين مد وجزر تخللها العديد من المشاكل والعقبات.

13- حاول خالد إيجاد زوج لأمه هناء وحاولت نيفين إيجاد زوجة لأبيها، وبشكل درامي تم تنسيق لقاء بين الاثنين دون علمهما لتكتمل الرواية بلقاء الأحباب وتكتمل السعادة.

الكاتب في سطور

- الكاتب عاطف رضوان المومني
- مواليد عبين/ عجلون /الأردن
- متزوج وله ولدان وابنتان
- أنهى تعليمه الثانوي من مدرسة عجلون الثانوية
- حاصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الزراعية من جامعة أنقرة - تركيا
- درجة الماجستير في التغذية والصناعات الغذائية - جامعة أنقرة تركيا.
- دبلوم في اللغة الإنجليزية - الجامعة الأردنية - عمان
- دبلوم إدارة من جامعة ميريلاند الأمريكية
- دبلوم لغة فرنسية - المركز الثقافي الفرنسي - قطر
- عمل ضابطًا أخصائيًّا للتغذية في الخدمات الطبية الملكية
- عمل مراقبًا ومفتشًا ورئيس قسم في وزارة الصناعة والتجارة والتموين - عمان - الأردن
- عمل أخصائيًّا للتغذية ومشرفًا في وزارة الداخلية القطرية ولا يزال على رأس عمله.
- وشارك في العديد من الدورات والمؤتمرات الدولية
- يتقن اللغة التركية والإنجليزية والفرنسية.

- أهم أعماله الأدبية:

1-ديوان زهور لا تذبل

2-ديوان يسبقني إليك ظلي

3-ديوان نبض قلم

4- رواية الحافلة 133

5-رواية حب في أثينا

6-رواية ورقة اليانصيب

7-رواية محطات في حياتي

8- رواية رجل الثلج ذو الكوفية

- من أعماله في مجال الصحافة

1-له موقع على الفيس بوك باسم الشاعر عاطف المومني

2-زاوية أسبوعية في جريدة الشرق القطرية - صحيفة ورقية

3-كاتب مقالات علمية في مجلة الشرطة القطرية - مجلة ورقية شهرية

4-مشارك في العديد من الصحف الإلكترونية والأمسيات والندوات الشعرية

hasanmufdy@yahoo.com

الفهرس ..

الإهداء	1	علاء يغادر عمان ..	157
الفصل الأول	3	عودته من إيطاليا ..	160
البداية ..	4	خالد ونيفين في الجامعة ..	161
في يوم العيد..	18	من السعودية ..	166
الفصل الثاني	61	وعاد فصل الشتاء ..	168
في مقر الحزب ..	62	الفصل الرابع	178
عاصفة ثلجية ..	68	ألم وحزن ..	179
في الصيف ..	81	دقات قلب ..	189
الفصل الثالث	91	عودة علاء من الإمارات ..	200
في بيت أبي ..	92	في إربد ..	218
مجمع النقابات المهنية / عمان ..	101	وتحقق الحلم ..	222
طلاق ..	112	ملخص الرواية	223
زواج سناء وأحمد ..	134	الكاتب في سطور	225
في عجلون ..	146	الفهرس	227